



مجلة تشوق ضيف

الدار المصرية اللبنانية

بج العذري
نحت العرب



الحُبُّ الْعُذْرِي
عند العرب

توزيع: الدار المصرية اللبنانية

١٦ ش عبد الخالق ثروت - القاهرة

تليفون: ٣٩٢٣٥٢٥ - ٣٩٣٦٧٤٣

فاكس: ٣٩٠٩٦١٨ - برقية: دار شادو

ص. ب: ٢٠٢٢ - القاهرة

رقم الإيداع: ١٨٨٩ / ١٩٩٩

الترقيم الدولي: 977-270-489-7

طبع: بدار نوبار للطباعة - شبرا

تليفون: ٤٣٠٩٦٠٨ فاكس: ٤٣٠٠٦٤٣

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى: رمضان ١٤١٩ هـ - يناير ١٩٩٩ م

تصميم الغلاف: هنادى سليط

مكتبة الإسكندرية
رقم التسجيل

١١٤٨٥

892.708

٥3543

ضى
ح

الحب العذري

١٩٧

عند العرب

دكتور شوقي ضيف

الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية	
892.708	٥3543
ضى ح	
٣٩٩٥٧	رقم التسجيل

توزيع

دار الفكر للنشر والتوزيع

المحتويات

الصفحة	
٧	تقديم
٩	الحب
١٩	الحب العذرى
٢٨	مَجْنُون لَيْلَى
٤٩	جَمِيل وَثَيْبَةَ
٧٠	قَيْس بن ذَرِيح وَثَيْبَى
٩٠	عُرْوَة بن حِزَام وعَفْرَاء
٩٨	كُثَيْر وعَزَّة
١٠٦	تَوْبَة وَلَيْلَى الأَخِيلِيَّة
١١٤	الصَّمَّة ورَّيَّا
١١٨	مَالِك وظَرِيفَة
١٢٢	ابن أبى عَمَّار النَّاسِك وسَلَامَة
١٢٦	ذو الرُّمَّة ومِيَّة
١٣٢	العَبَّاس بن الأَحْنَف وفُوز

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

دفعني إلى جمع هذا القصص المتصل بأحاديث الحب والصباية من كتاب الأغاني وغيره من كتب الأدب العربي أنى وجدت الشباب يقبلون على قراءة قصص الحب إقبالا شديدا، غير مفرقين في هذا الإقبال بين الجيد منه الذي يسمو بالأحاسيس والمشاعر والردى الذي تطفئ فيه الغرائز وتجمح الأهواء والعواطف في غير تردد ولا خجل ولا استحياء.

وشبابنا معذور في قراءته للنوع الأخير، بحكم رغبته في الاطلاع، ولما فيه من غرابة وشذوذ كالشذوذ الذي يقرءونه في قصص الجرائم والجنايات. وهم بذلك يقرءونه هوا وقطعا لبعض أوقات الفراغ لا التماسا لمثل أعلى في الحب ولا لثغاء روحى فيه يرتفع بهم عن صغائر الحياة. وإيماننا منى بحاجتهم إلى ما يقدم هذا الغذاء الرفيع لهم في سر وبساطة رأيت أن أعرض عليهم طائفة من قصص الحب العذرى عند أسلافنا الذي يتحول في بعض جوانبه إلى ضرب من التصوف المجرد من قيود المادة والحس، وهو حب حقيقى عاشه العرب في عصورهم الإسلامية الأولى، حب ليس فيه إثم ولا جناح ولا فسوق ولا حرج ولا خيانة ولا عار ولا خطيئة ولا ريبة، إنما فيه الوفاء والصفاء والعفاف والطهر والنقاء. وفيه كان يحتفظ المحبون بكرامتهم مهما ألح عليهم الحب ومهما اصطلوا من نيرانه واحتملوا من خطوبه، حتى إنهم ليموتون شهداء في سبيله، وفيه

تحتفظ الفتاة بجلالها ووقارها مع رقة العواطف ورهافة المشاعر ومع البر والحنان والإشفاق، ومع العشق والصبابة والهيام.

وقد صاغ أسلافنا هذا القصص العذرى النقى العفيف فى لغة ناصعة أروع ما يكون النصوص، ليس فيها أى إسفاف، بل فيها القوة والجزالة والمتانة والرصانة وهذا الجمال اللفظى الذى يحدث لذة محققة فى نفس القارئ. وأحاديثه لا تجرى نثرا خالصا ولا شعرا خالصا، بل تجمع بين الفنين فتمتع الأسماع حين تصغى إليها كما تتمتع القلوب والأفئدة. وإنى لأرجو مخلصا أن يجد فيها شباب القصاصيين بيننا أمثلة يحتذونها فى أساليبهم النثرية، كما يجد فيها شباب الشعراء أمثلة ونماذج أخرى تلهمهم التعمق فى تصوير دقائق الحب وعواطفه وأهوائه دون التورط فى غرائز الجسد وأدرانته.

وإنى لشديد الأمل فى أن يغرى هذا القصص ومُثله الخيرة العليا بعض شبابنا إلى تمثله والمعيشة فيه معيشة تدفعهم إلى إعادة كتابته فى قصص حديث، لا يقل عنه إمتاعا ولا جمالا، قصص يعتمد اعتمادا على عناصر الحب العذرى، مجسدا لها فى معانٍ وخواطر، وأحيانا فى ضروب من الحوار، لم تكن تخطر جميعا لأسلافنا على بال. والله أسأل الهدى والتوفيق وأن يهيى لنا جميعا من أمرنا رشدا.

القاهرة فى ١ يناير ١٩٩٩

شوقى ضيف

الحب

طبيعة الحب

لأفلاطون في الحب محاورة مشهورة تسمى الأدبية، أجرى فيها الحوار بين سقراط وبعض معاصريه من الفلاسفة والأطباء والشعراء والسوفسطائيين ورجال السياسة. والمخاطبة في مجموعها تصور مذهب سقراط في الحب، وإن عبّر كل متحاور عن وجهة نظره، وطبع كلامه بطوابع شخصيته الخاصة.

وقد بدأ أول المتحاورين، فقال: إن الحب أقدم الآلهة وأفضلها، فهو الذي يبعث في الإنسان الإحساس بالشرف وينمّي فيه الإيثار وروح التضحية. وفرّق ثاني المتحاورين بين نوعين من الحب: نوع دنيّ وضيع يلبي النزعات الجنسية، وهو حب النساء والحب الشاذ للغلمان، ونوع نبيل شريف يخلو خلوا تاما من كل نزعة جسدية وشهوة بهيمية، وهو الحب النقي البرئ ذلك الحب الذي يرتفع عن الصغائر ويتنزه عن الدنيا والذي يكسب صاحبه المعرفة والحكمة والفضيلة.

وواضح أن هذا الحب الروحي السامي هو الحب الذي ينشأ بين الأستاذ وتلاميذه أو مريديه، وإن كان الباحثون قديما وحديثا لم يتنبّهوا إلى ذلك، وظنوا ظنا فائلا أن المخاطبة ترفع من الحب الشاذ، حب الشاب للشاب، مع أنها تندد في غير موضع وبصرحة صريحة بهذا الحب، وتشن عليه حربا شعواء. وفي رأينا أن المخاطبة جميعها دفاع عن سقراط وتعلق شباب أثينا بآرائه وكلفهم بحواره الذي كان يملأ قلوبهم له حبا وحنانا، حتى زعموا أنه يفسدهم وأنه يتركزرى قوانين الخلق والعرف والدين، وحوكم محاكمة ظالمة أودت به وقضت على حياته. وقد ختمت المخاطبة بدفاع قوى حار عنه، ألقاه تلميذه ألقبيادس، وقد

صور فيه الحب العارم بينه وبين تلاميذه، وهو حب نقى برئ ممعن فى النقاء والبراءة، إذ كان سقراط نبيل النفس صافى الطبع كريم الخلق وكان الشباب يفتنون به فتوناً.

ويطلب ثالث المتحاورين - وكان طبيباً - فى التفرقة بين الحب الروحى الشريف والحب الحسى الوضعى، ويجعل من هذه التفرقة مبدأ عاماً لا يطبق فى الحياة الإنسانية وحدها، بل يطبق فى كل الأعمال والفنون، ويقول إن الحب أصل من أصول الكون، ويخرج به من عالم الحس المحدود إلى عالم العقل الواسع، ويجعله منبع كل سعادة وكل خير. أما رابع المتحاورين وهو أريستوفان، الشاعر الكوميدي المشهور فيسوق حديثه فى قصة خيالية فكهة، إذ يزعم أن الكائنات البشرية لم تكن فى أصل فطرتها كما هى اليوم: ذكراً وأنثى، بل كانت ذكراً وأنثى، وخنثى تجمع بين خصائص النوعين، وكان كل فرد من هذه الأنواع الثلاثة مدوراً على هيئة كرة، وله أربع أيد وأربع أرجل يمشى عليها جميعاً، وله أربع آذان ووجهان، وهكذا تزوج فيه بقية الأعضاء. وركب الغرور هذه الكائنات، فثارت فى وجه الآلهة، وغضب زيس الإله الأكبر، فشطرت كل فرد فيها شطرين عقاباً ونكالا لها، ومضت هذه الأشرطة يبحث كل منها عن شطره رغبة فى الاتحاد به كما كان الشأن فى أصل النشأة، وهذا هو سبب الحب، فهو فى حقيقته شوق وتعطش إلى استرجاع السعادة المفقودة. ويتحدث المتحاور الخامس - وكان سوفسطائياً - فيصطنع ألفاظ السوفسطائيين الخلابه، ويقول إن غاية الحب الجمال، ويضفى عليها أروع الخصال والفضائل، ويجعل زيتته العفة وكبح النفس عن الشهوات، وثمرته الأنا والألفة والصدقة.

ويتكلم سقراط، فتشرتب إليه الأعناق وتصغى الآذان والقلوب، ويستهل كلامه بالثناء على ما سمعه من المتحاورين، ثم يسألهم - على طريقته - عن بعض ما عرضوا له من وجوه القول، ولا يلبث أن يروى لهم حديثاً عن الحب سمعه من

امرأة تسمى ديوتيميا، وهنا نرى أفلاطون يتدخل، فيصف على لسان هذه المرأة الحب الأفلاطوني الذى ينسب إليه، وهو حب علوى أشبه ما يكون بتجربة المتصوفة عندنا، إذ يرتبط بنظريته المعروفة فى المثل وما كان يعتقد من أن أفراد كل نوع فى الموجودات الحسية والمدركات العقلية قد فاض عن حقيقة مثالية كلية مجردة، لها وجودها المطلق، وكل فرد من أفرادها يقترّب منها ويبتعد بنسبة ما يستوفى من خصاها وكماها.

وعلى هذا الأساس ترجع النفوس الإنسانية إلى نفس عليا واحدة، هى مثاها المطلق الذى انفصلت عنه، وهى لا تزال نحن إليه، فإذا رأت ظلاله فى شخص أقبلت عليه واتصلت به، فكان الحب. وهو عند أفلاطون فى درجات، أدناها الحب الجسدى الذى يتيح للإنسان شيئا من الخلود عن طريق ذريته، إذ يحمل أولاده محله، فيخلد وجوده الفانى إلى حين. ويلى ذلك الحب الجنسى حب روحى، يعشق فيه الحب نفس الخبوب، وهو أرفع من حب الجسد وأكثر خلودا، إذ يلقي فيه الحب محبوبه خصال الفضيلة والحكمة، تلك الخصال التى يغرسها الخبوب بدوره فى معشوقه، وبذلك تكون لهذا الحب الروحى ذرية كلرية الحب الجسدى المادى، إلا أنها أكثر منها قيمة وجمالا. ولا نرتاب فى أن أفلاطون إنما يريد بهذا الحب الروحى العلاقة الوثيقة بين الأستاذ وتلاميذه أو مريديه، وهو يجعلهم محبوبين له، يشيعون أفكاره وتعاليمه فى تلاميذهم أو معشوقيه، فتصبح له بذلك ذرية يفوق جمالها جمال ذرية الحب الجسدى، إذ شتان بين ذرية الدم والجسد وذرية الروح والعلاقة الروحية.

وفوق هذا الحب بدرجة أو درجات الحب الأفلاطونى المثالى الذى يرقى فيه العقل فوق العالم الحسى ويرتفع عن العالم الروحى المقيد بالأشخاص والناس إلى عالم الجمال المطلق أو عالم المثل. وهذا الحب عند أفلاطون هو غاية الغايات للفيلسوف أو محب الحكمة، وهو الغاية التى ليس وراءها غاية، والفيلسوف لا

يصل إلى هذه الغاية إلا بعد مجاهدات يعانيتها، إذ لابد له أن يتجاوز الفرد أو الشخص الذى يتذكر بجسده أو بروحه عالم المثال إلى هذا العالم نفسه، فيتأمل مثله الأعلى فيه، ويحبه محبة تملك عليه نفسه، حتى لا يستطيع عنه حولا، أو حتى يستغرق فيه استغراقا خالصا، وهو استغراق شبيه باستغراق الصوفية عندنا فى حب الذات الإلهية وكماها المطلق.

وتنتهى المحاوره بحديث ألقبيادس عن سقراط، وهو يعترف فى حديثه بأن لسانه يقصر عن تصوير ما أصاب به الشباب الأثينى من فتون بحكمته المضيقه المشرقة، وهى حكمة قوامها العقل فى أبدع صوره والخير فى أكرم مظاهره والحب كأروع ما يكون الحب بين الأستاذ وتلاميذه. وليس ذلك فحسب، فقد كان مثالا للعفة والشجاعة وأبلى بلاء مشكورا فى بعض حروب قومه. ومن أجل ذلك كله صبا إليه الشباب فى أثينا وكلفوا به أشد الكلف، وكبرت كلمة يقوها خصومه إنه أفسدهم، إذ كان نموذجاً أعلى للمواطن الصالح والفيلسوف الحق. وهذا إنما هو سطور أخيره فى الدفاع عن سقراط. والمحاوره كلها فى رأينا دفاع عنه وعن تعلق تلاميذه المشروع به، وإن كان أفلاطون قد ضمنها الحديث عن الحب الجسدى الوضع وعن حبه الأفلاطونى الرفيع.

ومهما يكن فقد صورت المأدبة الحب بجميع صوره المادية والمعنوية تصويرا رائعا، ولا نبالغ إذا قلنا إن جُلَّ ما قاله مفكرو العرب ومتفلسفتهم فى الحب نجده صدى واضحا لما دار فى هذه المأدبة وما قاله أفلاطون فى «الجمهورية» عن صوره الثلاثة: الجسدى والروحى والمثالى، وأنه يحدث لمشاكله بين اثنين فى أصل الوجود البشرى. ويؤثر أن جماعة من المتكلمين وأهل الآراء والنحل اجتمعوا يوما بمجلس يحى بن خالد البرمكى وزير هرون الرشيد، فطلب إليهم أن يتحدثوا فى الحب وطبيعته وسببه، فقال على بن الهيثم: الحب ثمرة المشاكلة، وقال أحد الخوارج: إنه لا يكون إلا بازدواج النفسين وامتزاج الشكلىين، وقال

على بن منصور الشيعي: إنه لا يكون إلا من ناحية المطابقة والمجانسة في الزكيب، وقال أحد شيوخ المعتزلة: إنه نتيجة المشاكلة وغرس المشابهة.

ويدور الزمن دورة ولتلقى بمحمد بن داود الظاهري الذي ألف كتابا في الحب باسم «الزهرة» ونراه فيه يروي عن الرسول صلى الله عليه وسلم قوله: "الأرواح جنود مجنّدة، فما تعارف منها أئتلف، وما تناكر منها اختلف"، ثم ينقل عن بعض المتفلسفة اليونانيين أن الله جل ثناؤه خلق كل روح مدورة الشكل على هيئة الكرة، ثم قطعها نصفين، فجعل في كل جسد نصفا، وكل جسد لقي الجسد الذي فيه نصفه كان بينهما عشق للمناسبة القديمة. والصلة واضحة بين هذه الفكرة وما جاء على لسان أريستوفان في المأدبة.

ويدور الزمن دورة أخرى، فلتلقى بابن سينا الفيلسوف المعروف ونراه يفرد للعشق رسالة، يقول فيها إنه نزوح إلى الكمال المنبعث عن الكمال المحض، ويجعله نوعين: جسدي ينشأ عن القوة الشهوانية، وهو الذي يستعان به على حفظ النوع، وعقلي ينشأ من القوة النطقية لغرض القرب من المعشوق الأول. وهذا الحب الثاني يطابق الحب الأفلاطوني مطابقة بيّنة.

ونغضى مع الزمن، وإذا ابن حزم الأندلسي يؤلف كتابه «طوق الحمامة في الألفة والألاف» وفيه يقول إن الحب اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة في هذه الخلقة في أصل عنصرها الرفيع. وابن حزم يردد فكرة أفلاطون في المثل، فالنفوس الإنسانية ترجع في أصل نشأتها إلى نفس عليا واحدة توزعت أجزاؤها في نفوس الناس، ويقول إن هذه الأجزاء تتصل فيكون الحب وتتفصل فيكون البغض. فسيرُ الحب والبغض في المخلوقات إنما هو في الاتصال والانفصال بين النفوس، فالشكل إنما يستدعى شكله، والمثل إلى مثله ساكن. وللمجانسة عمل محسوس وتأثير مشاهد، فكيف بالنفوس، وعالمها العالم الصافي، والله عز وجل يقول: ﴿هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها﴾

فجعل سبحانه وتعالى علة سكون الزوج إلى زوجته أنها منه. ولو كانت علة الحب جمال الصورة الجسدية لوجب أن لا يستحسن شخص القبيح في الصورة، وهو خلاف الواقع، ولو كانت العلة للموافقة في الأخلاق لما أحب المرء من لا يوافق في الشيم وهو ما لا يشهد به أيضا الواقع. فوجب أن يكون الحب شيئا في ذات النفس. فإن قيل إن هذا يقتضى أنه إذا أحب شخص شخصا بادلته حبا بحب، ونحن نرى كثيرا من المحبوبين ينفرون من محبيهم، فالقياس إذن غير مطرد، ويبدو أن نفس الذى ينفر من محبه ولا يقبل عليه إنما يعده عنه بعض الأعراض الطارئة التى تكتنفها من الطبائع الأرضية، فلم تحس الصلة بينها وبين الجزء الذى كان متصلا بها قبل حلولها فى جسدها، أما المحب فنفسه متخلصة من هذه الأعراض عالمة بمكان من كان يشركها فى المجاورة فى أصل الفطرة، وهى لا تزال تبحث عنه، حتى تجده، فتجذب إليه كالمغناطيس والحديد وكالنار والحجر، فحبه إنما هو تجديد حب قديم فى النشأة الأولى، ولعل من الطريف أن نجد هذه الفكرة عند بعض العلريين إذ يقول:

تعلق روحى روحها قبل خلقنا ومن بعد ما كنا نطافاً وفى المهدي
فزاد كما زدنا فأصبح ناميا وليس إذا متنا بمنقضى العهد

ويلاحظ ابن حزم أن النفس إذا ميزت فى المحبوب شطرها الذى تبحث عنه ثبتت فيه، أما إذا لم تميز فيه هذا الشطر فإن حبها لا يتجاوز الصورة الجسدية وهو حينئذ يكون حب للذة ومتاع، وهو ليس الحب السامى المصفى الذى تجد فيه النفس كمالها المنشود وإنما هو الحب الجسدى الذى تنقاد فيه لداع غامض يصدر عن غرائزها.

وللحب عند العرب منازل ومراتب متعددة، وأول مراتبه الهوى وهو الميل إلى المحبوب، ويليه الشوق وهو نزوع المحب إلى لقاءه، ثم الحنين وهو شوق ممزوج برققة، ويليه الحب وهو أول الألفة، ثم الشغف وهو التمنى الدائم لرؤية

المحبوب، ويليه الغرام وهو التعلق بالمحبوب تعلقاً لا يستطيع الحب الخلاص منه، ثم العشق وهو إفراط في الحب ويغلب أن يلتقي فيه الحب والمحبوب، ثم التئيم وهو استعباد المحبوب للمحب، يقال تئيمته حبا، ويليه الهيام وهو شدة الحب حتى يكاد يسلب الحب عقله، ثم الجنون وهو استلاب الحب لعقل المحب. وتتكرر مع مراتب الحب كلمات مثل الولع وهو شدة التعلق بالمحبوب، والشجن وهو الهم والكرب، واللوعة وهي الألم، وتباريح الحب وهي شدائده، والجوى وهو كتمانها والضيق به، والكمد وهو الحزن الشديد، والوجد وهو الصباية وشدة الحب، والوله وهو التحير من شدة الوجد، والكلف وهو الاستغراق في الحب، إلى غير ذلك...

وإذا كان العرب قد شغلوا بالحب والحديث عنه كما شغل اليونان الأقدمون فإن الغربيين المحدثين قد شغلوا به وبالبحث فيه وفي طبيعته وأنواعه شغلا متصلا، ومن خير من بحثوا ذلك كله في القرن التاسع عشر ستندال الفرنسي، والحب في رأيه أربعة أنواع: حب استلطاقي أشبه ما يكون بالألفة والصدقة، وحب مغرور يرضى به الحب غروره وكبريائه، وحب جسدي ينبع من الغرائز الجنسية، وحب عاطفي عفيف، وهو حب العشاق المتيمين المشهورين في التاريخ.

وعرض ستندال لنشأة الحب ونموه، فجعله يرقى في سبع مراتب، أولها مرتبة الإعجاب المتصل بالمحبوب، وثانيها مرتبة الشوق إليه، وثالثها مرتبة الأمل، أما الرابعة فهي المرتبة التي ينشأ فيها الحب، إذ يحس صاحبه إحساس اللذة والألم فيه. وحينئذ يأخذ الحب في النمو، فيصعد بالحب إلى المرتبة الخامسة، وهي المرتبة التي يصبح فيها محبوبه مثله الأعلى في الجمال والسعادة به، بحيث لا يدانيه إنسان آخر في صفاته ومحاسنه. وعبرت عن ذلك عزة صاحبة كثير حين قال لها الحجاج : والله ما أنت كما قال فيك كثير، فقالت له:

إنه لم يرني بالعين التى رأيتنى بها، ومن أجل ذلك قال بعض المحبين:

ووالله ما أدرى أزيدت ملاحهً وحسنا على النسوان أم ليس لى عقل

وينتقل الحب عند ستندال من هذه المرتبة الخامسة إلى المرتبة السادسة، وهى التى يصطلى فيها نيران القلق والخوف والشك المحرقة. ولا تلبث هذه المرتبة أن تسلمه إلى المرتبة السابعة، وهى أقصى مراتب الحب وأبعدها غاية، وهى المرتبة التى يعنف فيها الحب، ويجمع بصاحبه جموحا لا يعرف فيه قصدا ولا اعتدالا.

وفى هذا القرن، قرن علم النفس والتحليل النفسى كثرت أبحاث النفسيين فى الحب وعلاقته بالغريزة الجنسية والعقل الباطن الذى تعصف به عواصف لا حصر لها من الغرائز والرغائب الجسدية والانفعالات الشعورية والعقلية. ويقول بعض الباحثين إن الحب المحرف بالغريزة الجسدية، أو هو تسام بها، ويقول آخرون إنه استعادة للذكريات ماضية، بينما يزعم غير واحد أن المحب إنما يحب ذاته من خلال محبوبه، فهو لا يرى فيه إلا نفسه، وكأنه مرآة صافية له، فيحلم به وهو إنما يحلم بنفسه، ولكل محب طريقته فى الحلم. ومن خلال هذا الحلم لا من خلال الحقائق المنجردة تغنى المحبون بمن يحبونهم ونظموا فيهم أشعارهم الغرامية، التى تبعثها تلك القوة السحرية العجيبة قوة الحب التى تعمى المحب عن رؤية أى نقص فى محبوبه، بل التى تجعله يضيف عليه جميع الخصال والחסن، حتى وكأنه نسج من أشعة القمر، ولا يزال يعيش فى هذا الخيال أو هذا الحلم منتشيا بشرا به الصفو الهنىء.

عوارض الحب

متى برّح الحب بصاحبه أصبح إنسانا غير عادى، فهو يعيش فى عالم خاص به لا يرى فيه إلا محبوبه وخياله، وكأنما تضيق فى عينه آفاق الكون، فتصبح أفقا

محدودا، بل رقعة محدودة يملؤها المحبوب والفكر فيه والتأمل في جماله، ولعل ذلك ما يجعل الحب ينطوى على نفسه، فمحبوبه كل همه وفكره وشغله، وهو لا يأنس إلا إليه وإلى ما يذيقه من رحيق حبه وحريقه.

ويدفع ذلك الحب إلى أن يعيش في عزلة عن مجتمعه، فقد ملأ عليه محبوبه كل وقته، وأصبح فتنة فاتنة له، لا يستطيع انصرافا عنها ولا تخلصا منها، وكأنه - كما يقول بعض النفسيين - يرى فيه نفسه وذاته أو يرى فيه الصورة التي كونتها غرائزه وعواطفه وانفعالاته التي اختزنها في عقله الباطن على طول الزمن، فهو يرى فيه الماضي والحاضر والوهم والحقيقة والخيال والواقع. ومن كل ذلك تألف صورة المحبوب الجميلة الرائعة التي تستأثر به خالبة للبه، مألكة عليه كل شيء من أمره.

وكان المحبوب يجمع للمحب كل ما انفعلى به وتأثر فيما مضى من حنان أم أو شفقة أب أو عطف أخت ومن جمال وجه أو لون شعر أو طابع حسن أو نظرة ساحرة أو نعمة صوت وغير ذلك مما يستقر في عقله الباطن، فإذا ما صادف شيئا من ذلك في شخص انصب في نفسه هذا التيار العجيب من الحب، أو قل نفذ هذا التيار من عقله الباطن إلى عقله الظاهر، فتسلط عليه هذا الشخص، أو قل سلط عليه هو ذكرياته وقوى خياله، فإذا هو يستحيل في نظره إلى كائن شعري فائن أخاذ. وهذا هو سر الحب عند بعض النفسيين وسر رابطته السحرية التي توثق الأواصر بين الحب ومحبوبه، فإذا هو تكفيه منه النظرة والإيماء العابرة، أما الوصل فهو كمال الأمنية ومنتهى الأمل والفرح الذي لا شائبة معه والصفاء الذي لا كدر فيه. وكل فراق وهجر لا يزيد الحب إلا ولوعا بمحبوبه، وكذلك كل عدل ولوم، وكم شكوا المحبون من العذال والرقباء والوشاة، وإنهم ليضنون ويسقمون ويطول بهم السهر والسهاد ويتعذبون عذابا ممضا، وهم منتشون لا يفيقون، سعداء بكل ما يألون، أو كما قال الشاعر:

هو الحبُّ فاسلم بالحشأ ما الهوى سَهْلُ فما اختاره مُضْنَى به وله عقلُ
وعِشْ خالِياً فالحبُّ أَوَّلُهُ عَنَّا وأوسطه سُقْمٌ وآخره قَتْلُ

وربما انتهى الحب بصاحبه إلى حال من الهيام تشبه حال المجانين، كما نعرف عن مجنون ليلى في القديم، إذ يصيب المحب ذهول كذهول المجانين يأتي من استغراقه في محبوه وملازمته لفكرة واحدة هي فكرة حبه وثبوته عندها لا يفارقها، بالضبط كما يحدث لبعض المجانين حين يلزمون فكرة، لا يتحولون عنها ولا ينصرفون.

وإذا بلغ المحب هذه الدرجة من الفتون والجنون بمحبوبه لم يعد من الممكن أن يخلص من حبه وحلمه به، أما إذا كان حبه معتدلاً فمن الممكن أن يخلص منه ويصحو من سكرته. ويحدث ذلك كثيراً إذ انتهى الحب بزواج، إذ يفتح الزواج - في أحوال كثيرة - عيني المحب المعصوبتين، ويزيل ما عليهما من غشاوة سحرية، فيستيقظ من حلمه ويندم على ما فرط من أمره. وهو لا يندم سريعاً، بل يأخذ في الندم رويداً رويداً وقد تراءت له خيبة مُرَّة. ولذلك كان الناس يخافون من زواج الحب، وهو مهما يكن أجهل وأبقى من زواج المصلحة، وقد يظل المحب على حبه بعد الزواج، وحينئذ يكون الزواج مثالياً، بل يكون حلماً ذهبياً سعيداً ليس وراءه ولا مثله حلم.

الحب العذرى

بنو عُدرة والحب

بنو عُدرة إحدى قبائل قضاعة الكثيرة التي كانت تنتشر فى شمالى الحجاز وتمتد عشائرها ويطونها من المدينة إلى الشام، وكانوا يسكنون وادى القرى، وهو واد طويل بين تيماء وخيبر فيه قرى منثورة وفيه زروع ونخيل، وفيه يقول جميل :

ولقد أجزّ الدليل فى وادى القُرَى نشوان بين مزارعٍ ونخيلٍ

وفى هذا الوادى الممرع الخصب كان بنو عُدرة يتنقلون بجوامعهم، وقد رزقهم الله من الثمرات ما جعل حياتهم رغدة هائلة بالقياس إلى قبائل الصحراء الذين كانوا يقاسون غير قليل من الشظف، حين تجذب مراعيهم، فتموت القطعان ويهلك الناس.

لم تكن حياة بنى عُدرة قاسية، ولا كان فيها هذا الجذب المهلك، إنما كان فيها خصب وغماء هيّاً لشيء من الفراغ كما هيّاً لشيء من الاستقرار وأن تجرى الحياة هادئة، فليس فيها منازعات القبائل على المراعى وما صاحب هذه المنازعات من حروب دائرة لا تنقطع.

وكان لذلك أثره فيما خلفت بنو عُدرة من شعر، فإننا لا نجد عندها شعر الحماسة والفخر والزهو الذى كان منتشرًا بين قبائل نجد، وإنما نجد عندها غطاء آخر من شعر غنائى قوامه التعبير عن آلام النفس إزاء الحب وكأنهم لما فرغوا لأنفسهم أو هيأت لهم حياتهم أن يفرغوا لأنفسهم أخذوا يغنونها هذا الضرب من الشعر الوجدانى.

وليس معنى ذلك أننا لا نجد شعر الحب عند غير بنى عذرة، إنما معناه أنهم أكثروا منه وأن حياتهم أعطتهم الفرصة لكي يغثوا أنفسهم، أما بعد ذلك فإن العرب تغتوا بالحب، تغتت به قبائلهم منذ العصر الجاهلي ولكنها لم تجعله كل همها، فقد كانت الغارات تشغلها، وكان الأخذ بالتأثر مدار حياتها، فنظمت في الفخر والمدح والهجاء.

أما بنو عذرة فانطوا على أنفسهم واستمدوا من عواطفهم الذاتية ما جعلهم يشتهرون بين القبائل العربية بهذا الغزل الصافي الرقيق، وكان للإسلام أثره في نمو هذا الغزل، بما فرض على الناس من أن يغيضوا أبصارهم ولا يأتوا بفاحشة ولا ينتهكوا الحرمات.

ولم يقف تأثير مثالية الإسلام عند بنى عذرة، فقد أخذت هذه المثالية تطبع شعر البدو في نجد بطوابع واضحة من البراءة والطهارة والتسامي، فلم نعد نقرأ شعر الحب الإباحي الذي كان يردده امرؤ القيس وغيره من شعراء نجد في الجاهلية، إنما أخذنا نقرأ شعرا عفيفا، فيه نبل، وفيه هذا الحزن الذي يصدر عن نفس ملتاعة تخاف الله فيما تأتي من قول وفعل.

وهيات لهذا الحزن أيضا بيئة الصحراء وما يحيم عليها من سكون وصمت في لياليها المقمرة الشاحبة، ولذلك لم يكن من الغريب أن تستهل القصيدة العربية حتى في الجاهلية بالبكاء على الأطلال والديار، فطبيعة البيئة الصحراوية تبعث على الشجوا والحزن والألم.

الصحراء والإسلام إذن هما اللذان أعدا لظهور هذا الغزل العفيف الحزين وما طوى فيه من حب نبيل شريف، وهو غزل يعبر عن أسمى العواطف التي يفيض بها القلب الإنساني. غزل نحس فيه لذع الحرمان وأن الرجل يتهيب الاقتراب من المرأة، فهي كائن ملائكي تحول قدسيته دون لمسه، وحتى هي إن

وصلته لا يزال يشعر شعورا عميقاً بالألم واليأس، بل قد يفضى به حبه إلى الجنون أو إلى الموت، وهو لا يأتى ذلك وحده، بل تأتبه المرأة أيضا سعيدة قريرة العين.

وتستفيض الأخبار بذلك عن بنى عذرة وغيرهم من الأعراب فى هذا العصر الإسلامى عصر مجنون ليلى وجهيل بثينة وقيس بن ذريح، سئل رجل من عذرة: ممن أنت؟ قال: من قوم إذا عشقوا ماتوا، وقال رجل لُروة بن جزام العلى: يا هذا بالله أصبح ما يقال عنكم: أنكم أرق الناس قلوبا؟ قال: نعم والله لقد تركت ثلاثين شابا قد خامرهم الموت، ما لهم داء إلا الحب. وستلت امرأة عذرية بها هوى يدنيها من الموت: ما بال العشق يقتلكم معاصر عذرة من بين أحياء العرب؟ فقالت: فينا تعفف، والعفاف يورثنا رقة القلوب والعشق يفنى آجالنا. وقيل لأعرابي: ما كنت صانعا لو ظفرت بمن تهوى؟ قال: كنت أمتع عيني من وجهها وقلبي من حديثها وأسز منها ما لا يحبه الله، قيل، فإن خفت أن لا تجتمعا بعد ذلك؟ قال: أَكِلْ قَلْبِي إِلَى حَبِهَا وَلَا أَصِيرُ إِلَى نَقْضِ عَهْدِهَا. وقيل لأعرابي آخر وقد زوجت عشيقته وأهلها يجهزونها لزوجه: أيسرك لقاءها؟ قال: نعم والذى أمتعني بها وأشقاني بطلبها، قيل: فما كنت صانعا؟ قال: كنت أطيع الحب فى لقاءها والتمتع بحديثها وأعصى الشيطان فى إغها وما يوحى من نزواته، ثم قال: وهل أفسد عشقَ عشر سنوات بما يبقى عاره فى ساعة تنفد لذتها وتبقى تبعثها، إنى إذن للقيم، لم ينجبنى أصل كريم. وقيل لبثينة: هذا جميل يتعذب فى حبك فهل عندك شئ تنفسين به وجده؟ فقالت: ما عندي أكثر من البكاء إلى أن ألقاه فى الدار الآخرة أو أزوره وهو ميت تحت الثرى.

وهذا الحب العفيف الطاهر انداحست منه موجة إلى البيئات المتحضرة فى الحجاز، فإن أهل مكة والمدينة شاع عندهم حقا غزل صريح غمته الحضارة

والترف اللذان غرقوا فيهما، وهو غزل ثرثار لا ينجل ولا يتألم إلا قليلا، ولكن مع شيوع هذا الغزل نجد أسرابا من غزل عفيف، تغلغل في تصاعيف هذا الغزل الصريح، فإذا هناك من يشقون بالحب ويدوقون لذته الحلوة المؤلمة. وكانت أهم جماعة غزاها هذا الغزل العذرى هي جماعة الفقهاء وأصحاب الحديث من أمثال عروة بن أذينة وعبيد الله بن عتبة وعبد الرحمن الجشمي الذي سمع سلامة وهي تغنى، فوقعت في قلبه وهام بها حبا، ونظم فيها كثيرا من الأشعار، وكان يعرف بالقس لكثرة عبادته، فلما ذاعت فيها أشعار نسبت إليه، سُميت سلامة القس، وقالوا إنها همت ذات يوم أن تقبله فامتنع عليها، فقالت له: ما يمنعك وأنت تحبني؟ فقال لها ويحك أما سمعت قول الله عز وجل: ﴿الْأَخْلَاءَ يَوْمَئِذٍ لِبَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ وإلى الله أكره أن تكون صلة ما بيني وبينك في الدنيا عداوة في يوم القيامة، ونهض وعيناه تدرقان بالدموع. وتأثر بصنيع الفقهاء كثير من أهل مكة والمدينة، فكان غير شاعر يرتفع بحبه عن أن يكون عبثا وهوا، وإذا كان عمر بن أبي ربيعة زعيم الغزلين الحضريين في البلدتين يتخذ الغزل فنا من فنون الترف ويقصد به إلى العبث والدعابة، فقد كان وراءه غزلون صادقون يرتفعون بغزلهم عن اللهو والهزل على نحو ما نجد عند الحارث بن خالد القرشي، فقد كان عاشقا لعائشة بنت طلحة، وله فيها أشعار كثيرة تصور وجده وحرقة، ولما قتل عنها زوجها مصعب بن الزبير قيل له: ما يمنعك الآن من زواجها؟ قال: والله لا يتحدث رجالات قريش أن تشيبي بها كان لريبة ولشيء من الباطل.

وقد ظلت هذه الصورة الرائعة للغزل العفيف المحروم بعد العصر الإسلامي ترافق العرب في عصورهم المختلفة، فقد تأثرها غير شاعر، بل عاشها كثير من الشعراء أمثال العباس بن الأحنف صاحب فوز المشهور بغزلياته في العصر العباسي، وعنى بها المؤلفون فألف فيها محمد بن داود كتابه الزهرة، وألف ابن

حزم كتابه طوق الحمامة . وليس من ريب فى أن هذا الحب العفيف الذى يصور صفاء القلب وطهارة الضمير كما يصور احتمال الآلام والمشقات فى صور رائعة من الوجد، ليس من ريب فى أنه هو الذى أعد فيما بعد لظهور الحب الصوفى ، فقد وجد فيه الصوفية نبعاً لا ينضب ولا يجف لمواجهة إزاء الذات الإلهية، بل وجدوا فيه خير ما يعبر عن لواعج الشوق المستعرة فى حنايا صدورهم وما قاسوا فى جبههم من صنوف الآلام والبلايا والحن.

وما انحب العلوى إلا صوفى خالص، صوفى فى ظمئه الذى لا ينتهى إلى رؤية الحبيب ولقائه، وصوفى فى تغنيه بعشقه الجامح الذى يملك كل قلبه وكل أهوائه وعواطفه ومشاعره، وصوفى تعييه الحيلة وتعوزه الوسيلة إلى لقاء بالحبوب، وإنه ليسير فى طريق لا نهاية لها ولا سبيل إلى الدلو من غايتها إلا بإسلام الروح، وصوفى فى ارتفاعه عن كل صفائر الحياة، لعله يقرب من قدس الأقداس، وصوفى فى ابتهاله وذله وضراعه، وما أشبه شعره بالزائيل الدنية. لذلك كله لا نغلو إذا قلنا إن هذا الحب العلوى هو الذى أتاح لنا هذه الثروة البديعة من الحب الصوفى السامى.

غزل وقصص كثير

بين أيدينا من هذا الغزل العلوى تراث ضخم يحفل به كتاب الأغاني لأبى الفرج الأصفهاني وغيره من كتب الأدب القديمة، ولحن لا نلم به حتى نراة روعة شديدة، وهى روعة ترجع إلى بساطته وسداجته كما ترجع إلى صدقه وإخلاص قائله فى تصوير عاطفته، ولذلك كنا لا نقرؤه حتى نتأثر به تأثراً شديداً، لأنه يمثل نفوساً عاشقة حقاً، وهى نفوس تتألم، نفوس قد طهرها الحب وصفها من أدران الحس، فارتفعت عن المادة وكل ما يتصل بالمادة إلى أفق رفيع من نقاء القلب وصفاء الضمير.

والشاعر يمشى فى طريق ملئ بالصعب والأشواك، صعب الحجر والصب
وأشواك الوشاة والرقباء، وهو يجاهد ويعانى، لا يتحول عن وجهته، فعينه دائم
معلقة بالحبوب، الذى سلب روحه وعقله وأشفى به على التلف والهلاك. ومهم
صد عنه ولم يبادل الهوى والود، فإنه لا ييأس من بلوغ الأمل المحبوب فى أستان
الغيب، فالصبح قريب، وهو لا يكف عن الرجاء، مهما تكاثفت الدياجع
وتلاحقت الظلمات، فالحبيب سيدنو منه وسيفوز بقلائه، وسينهل من مورده.
العذب ما يشفى غصبه، ويزيل حزنه وترحه. ولكن أين هذا المورد العذب؟ إن
لا يظفر بنهلة منه تروى ظمأه، وهو إن اقترب منه لا يلبث أن يبعد فى صحراء
هذا الحب، وهى صحراء موحشة محرقة، تبتلى بأعاصير لا أول لها ولا آخر.
وكم يلقى سالكها من متاعب ومصاعب، وكم يحف به من أخطار ومهالك،
وهو باكى العين محزون الفؤاد موزع الخاطر قد امتلأ صدره بالهموم والغموم.

ولا تظن أن هذا الجحيم الذى كان يشتعل فى فؤاد الشاعر العذرى كان
حمما ونيرانا خالصة، فإنه سرعان ما يتحول برذا وسلاما ويصبح نعيما وريعا
باسما حين يفوز من محبوبته بوصل أو لقاء أو زيارة فإن الدنيا تشرق من حوله
وتصبح بهجة وسعادة خالصة، وهى سعادة لا ينالها إلا بعد التعب والضنى
والصبر الطويل. فالثمرة الحلوة لا يجنيها إلا من كابد وعانى، وعلى الحب دائما
أن يحتمل أوار الحب وما يلفحه من رياح الهجر، متطلعا إلى نسيم الرضا، وعليه
أن يحتمل أشواك الطريق حتى ينال الرضا، وأن يعانى حنادس الليل الطويل حتى
يظفر بالفجر الجميل.

وأنت لا تقرأ فى شعر هؤلاء العذرين حتى يملك عليك نفسك بهذه اللوعة،
بل هذه الغلة التى تتحرق لها قلوبهم دون أن يستطيعوا لها برء أو شفاء، وأنت
لا تجد أثناء ذلك تكلفا ولا ما يشبه التكلف وإنما تجد صدق اللهجة وحدة
الشعور وحرارة العاطفة مما يأسر لك ويخلب عقلك. ولا نبالغ إذا قلنا إن هذا

الشعر العذرى هو أروع صورة عربية لشعر الحب، فقد محص العشق قلوب هؤلاء الشعراء وطهرها وصفافها بل جعلها طهرا وصفاء خالصا.

وبون بعيد بين شعر هؤلاء الشعراء وشعر أسلافهم الجاهليين، فقد كانوا وثنيين ماديين، وكان شعرهم أو غزلهم ماديا إباحيا، لا كرامة فيه للمرأة ولا إجلال ولا قدسية، فالشاعر يتغزل فيها صادرا في غزله عن غرائزه الجنسية التي يشترك فيها الإنسان والحيوان، فإذا تركنا الجاهليين إلى كثرة الشعراء المتحضرين في مكة والمدينة ممن كانوا يعاصرون العذريين وجدنا الغزل عندهم تشوبه المادة في كثير من جوانبه، ويقصد فيه الشاعر إلى العبث والهزل والدعابة في كثير من الأحيان، فهو ليس شعر الحب الملتاع ولا شعر الحب العفيف الذي لا يعرف الحس والمادة ولا الهزل والعبث، وإنما يعرف الحب الجاد الخزين وما يبعث في نفس المحب من عاطفة متقدة ومن كآبة وحزن ومن يأس ورجاء وشقاء وسعادة.

وعلى هذا النحو لم يكن غزل العذريين كغزل المتحضرين الذين عاصروهم ولا كغزل أسلافهم الجاهليين، فهو غزل يعبر عن نفوس محرومة قد طهرها الإسلام من كل دس، وبرأها من كل غرض جسدى تافه، غزل لا يراد به إلى تصوير المرأة وإنما يراد به إلى تصوير هذه النفس العاشقة وما تبتس به وتنعج في عشقها وما تكابده في هذا العشق من ألوان العناء وما تجنيه من ثمرات مرة حلوة إن صح أن تكون هناك ثمرات حلوة مرة في آن واحد.

والإسلام من غير شك هو الذى هباً لظهور هذا الغزل، فقد صان المرأة وأسبغ عليها غير قليل من الكرامة والإجلال، وبعث في نفوس هؤلاء البدو مثالية خلقية، جعلتهم أو جعلت أفئدتهم تصغى إلى تعاليمه، فإذا هى تخلصها من أدران الجاهلية وأدران الجسد وما يتصل بالجسد، وإذا هذه النفوس قد صفيت وصفى معها الحب، وتخلص من شوائبه المادية القديمة. ولم تشع بين هؤلاء البدو

من العذريين الحضارة ولا دخل في ديارهم الزحف، فلم تفسد نفوسهم ولا تحول غرضهم الى فن من فنون الزحف، بل بقيت له بداوته وسذاجته ويساطته، وأخذوا يعبرون به عن دخائل نفوسهم إزاء المرأة وقد حاطها الإسلام بهالة من التجلّة، فإذا هم ترق أحاسيسهم وتنبل عواطفهم ومشاعرهم، وإذا هذا الغزل العفيف الظامى يصدر عن فطرتهم وسليقتهم صدورا طبيعياً كما يصدر الضوء عن الشمس والشدى عن الزهرة.

ولم ترو لنا كتب الأدب هذا الغزل وحده، وإنما قدمته فى قصص غرامى يصور إلى حد بعيد تجارب كل عاشق من هؤلاء العشاق وما بعثه فى كل تجربة على نظم مقطوعاته الغزلية أو الوجدانية، وأنت لا تقرأ هذا القصص حتى تجد فيه المزوجة الدقيقة بينه وبين الأشعار التى رويت فيه، فقد حافظ القصص على سياق هذا القصص، ولم يفرطوا فى وضع المناسبات الدقيقة لما ساقوا من أشعار.

والذى لا ريب فيه أن لغة هذا القصص كلغة ما روى فيه من أشعار، لغة فيها جزالة وفيها هذا الصفاء الذى نجده فى شعر العذريين، أو قل هذا الجمال اللفظى الذى يمتاز به الغزل العذرى. ولم يعقد الرواة فى هذا القصص، بل تركوه فى حال ساذجة، كسداجة هؤلاء البدو الذين روى عنهم، فهو قصص بسيط، ليس فيه تكلف ولا ما يتصل بالتكلف، قصص بدوى إن صح هذا التعبير، ليس فيه بُعد ولا إغراق فى التخيل، ومن هنا يأتى جماله، لأنه يصور حياة فطرية سليمة.

ويظهر أن القصص لم يدركوا سبب هذا الغزل المحروم وأن مثالية الإسلام الخلقية هى التى دفعت إليه، فوضعوا من عند أنفسهم سببا ظنوا أنهم به يستطيعون أن يوجدوا العقدة النفسية التى أحدثت هذا الحرمان، وهو سبب سيراه القارئ منتشرا فى كثير من هذا القصص الذى رويناه، وذلك أنهم يروون أن العرب فى هذا العصر الإسلامى الذى ظهر فيه ذلك الغزل العذرى المتنوع

الظامى أبدا كانوا يكرهون أن يزوجوا فتياتهم من عشاقهم الذين ينظمون فيهن أشعارهم، فيفضحونهن ويفضحون آباءهن وعشائرنهن، وهى فضيحة كبرى لم يكن بد من أن يعاقب عليها العاشق، فيحرم من معشوقته جزاء وفاقا لجريمته فى حقها وحق أهلها. ولا يعرف التاريخ الصحيح هذه العادة للعرب، وهى ليست من سنن الإسلام ولا مما فرضه على الناس، وهو لا يحرم الحب الطاهر الشريف، إنما يحرم الحب الآثم الخسيس.

وزاد الرواة أن السلطان كان يهدر دم هؤلاء الغزلين، وليس بمعقول أن الخلفاء الأمويين كانوا يهدرون دماءهم ويستبيحونها، بغير نص من القرآن الكريم ومن الحديث النبوى، وما حرم الإسلام شيئا كتحریم القتل، بل لقد حرمه حتى فى الأخذ بالثأر، فكيف يحلله الخلفاء والحكام فى العشق العفيف والحب الطاهر الشريف، ولقد كانوا هم أنفسهم يروون غزل هؤلاء الخبين ويعجبون به وما فيه من وجد وهيام، وكان أمامهم شعراء مكة والمدينة من أمثال عمر بن أبى ربيعة، ممن كانوا يصرحون فى حبهم ولا يوارون ولا يستخفون ولا يخجلون، ولم يحدث أن طلبوا عقابهم فضلا عن قتل النفس المحرمة بغير حق. إنما هو خيال القصاص الذين صاغوا هذه الأخبار، ولم يفكروا فى أنهم يكتبون حقائق، إنما فكروا فى أنهم يكتبون قصصا للتسلية والمتعة الأدبية، وقد رأوا فى إهدار دم العاشق البدوى وتحريم المعشوقة التى تغزل بها عليه ما يحبك قصصهم الغرامى ويستند سياقه، فعمدوا إلى رواية ذلك بقصد الخبكة القصصية. ويمكن أن ندخل فى هذه الغاية الفنية الخالصة ما تخيلوه من توحش مجنون ليلى حتى ألف الأطباء، وعاشيته، وما أكثروا من غشيان الإغماء للعشاق وكيف أنه قد يودى بحياتهم. فكل ذلك إنما هو خيوط خيالية أضيفت إلى النسيج الواقعى لهذه القصص الغرامية، وهى خيوط ساعدت على إحكام هذا القصص وجعلته عملا فنيا بديعا.

مَجْنُون لَيْلَى

الْمَجْنُون وصاحبته ليلي

كان قيس بن الملوّح جميل الوجه أبيض اللون، وكانت ليلي ابنة عمه المهدي من أجل النساء وأظرفهنّ وأحسنهن جسما وعقلا وأفضلهن أدبا وأملحن شكلا. وقد نشأ معا يلعبان في حى من أحياء بنى عامر بنجد، ويتبادلان صداقة الطفولة العذبة حتى إذا شبّا قليلا تبعا - على عادة أمثالهما - أغنام أبويهما، يرعيناهما، وكل منهما يآلف صاحبه ويشعر بالسرور فى رفقته، ولم يكونا يعلمان ما يحبّه لهما القدر وأنه جادّ من ورائهما فى نسج قصة رائعة من قصص الحب العذرى الطاهر. وكمن من أطفال نشئوا معا، وكمن من أطفال تقابلوا وتحادثوا ولم يآبه بهم الناس، لأن لقاءهم وحديثهم ذهبيا مع الريح، أما لقاء المجنون بليلى وأحاديثه معها فقد خلّدا على التاريخ، إذ تطور هذا اللقاء وتلك الأحاديث إلى نوع لا ينضب من ينابيع الحب الشريف. لقد كانا يرعان الأغنام وأولادهما الصغار التى يسميها العرب البهّم، وهما لاهيان عن الدنيا وعن أمرهما، لا يعرفان ما الحب ولا ما أماراته. وكبرت ليلي، وأصبحت عروسا تخطب، فمنعها أبوها من الرعى على عادة لداتها حين يكبرن، وظلت صورتها فى الرعى لا تبرح ذاكرة قيس، فقد كان يرى فيها أجمل ذكرياته معها، وفى ذلك يقول:

تعلقت ليلي وهى ذات ذؤابة ولم يند للأتراب من ثديها حجّم
صغيرين نرعى البهّم ياليت أننا إلى اليوم لم تكبر ولم تكبر البهّم

الدلاع نيران الحب

انقطعت ليلي عن لقاء قيس بن الملوّح، فأحس بفراغ كبير، بل سرعان ما أحس أن المودة التى كانا يتبادلانها تركت آثارا عميقة فى نفسه، وذات مرة

كان يمر بالحي راكبا ناقة له، فرآها مع نسوة، ودعونه إلى النزول والحديث معهن، فنزل، وكان محدثا لبقا، وجعل يحادثهن، وعينه لا تفارق ليلي، وجاءته لتمسك معه باللحم، وهو يقطعه، فقطع كفه بالسكين وهو شاخص فيها، فجذبت السكين من يده وهو لا يدري. وأوقد ناراً للشواء، وطرح قطع اللحم فيها، وأقبل يحادثها، فقالت له: انظر إلى اللحم هل استوى أم لا؟ فمد يده إلى الجمر، وجعل يقلب بها اللحم، فاحترقت وهو لا يشعر. ولما عرفت ما داخله صرفته عن ذلك، ثم شدت يده بهُذُب رداً لها. وذهب وقد استحكم عشقها في قلبه.

وكانت ليلي بعد هذا المجلس تستدعيه لزيارتها، فكان يأتيها ويتحدثان وكل منهما مقبل على صاحبه معجب به، ولا يزالان كذلك حتى يمسيا. وانصرف يوما إلى أهله فبات بأطول ليلة شوقاً إليها واجتهداً أن يغمض، فلم يقدر على ذلك، فأنشأ يقول:

نهارى نهارُ الناس حتى إذا بدا لي الليلُ شأقتني إليك المضاجعُ
أَقْضَى نهارى بالحديث وبألمنى ويجمعنى والهَمُّ بالليلِ جامعُ
لقد ثَبَّتَ في القلبِ منكِ محبةٌ كما ثَبَّتَ في الراحتينِ الأصابعُ

وخرج ذات يوم يريد زيارتها، فلما قرب من منزلها لقيته جارية فتشام منها، فلما سار إليها حدثها بقصته وتشاؤمه من الجارية وأنه يخاف تغير عهدها ويكي، فقالت له: لا تخف، حاش لله من تغير عهدي، لا يكون والله ذلك أبداً إن شاء الله. فلم يزل عندها يحادثها بقية يومه. ووقع له في قلبها مثل ما وقع لها في قلبه. فجاءها يوما كما كان يجي، وأقبل يحدثها، فأعرضت عنه، وأقبلت على فتى يسمى منازلًا بحديثها، تريد بذلك محنته وأن تعلم ما في قلبه، فلما رأى ذلك جزع جزعا شديداً حتى بان في وجهه وعُرف فيه، فلما خافت عليه أقبلت كالمسيرة إليه، فقالت:

كلانا مظهر للناس بُغضاً وكلُّ عند صاحبه مَكِينُ
تُبَلِّغنا العيونُ مقالتيْنا وفي القلبين ثَمَّ هَوَى دَفِينُ
وأَسْرارُ المَلَا حِظٍ لَيْسَ تُخْفِي إذا نَطَقْتَ بِمَا تُخْفِي العيونُ

فَسُرِّي عنه وانكشف همه وعلم ما فى قلبها، فقالت له: إنما أردت أن أمتحنك
والذى لك عندي أكثر من الذى لى عندك، وأعطى الله عهداً إن جالست بعد
يومي هذا رجلاً سواك، حتى أذوق الموت إلا أن أكره على ذلك، فأنصرف عنها
قريب العين، وهو يقول:

أَظُنُّ هَوَاهَا تَارِكِي بِمَضَلَّةٍ من الأرض لا مَالٌ لَدَيَّ وَلَا أَهْلُ
وَلَا أَحَدٌ أَقْضَى إِلَيْهِ وَصِيَّتِي وَلَا صَاحِبٌ إِلَّا الْمَطِيَّةُ وَالرَّحْلُ
مَحَا حُبُّهَا حُبُّ الْأَلَى كُنَّ قَبْلُهَا وَحَلَّتْ مَكَاناً لَمْ يَكُنْ حُلٌّ مِنْ قَبْلُ

استغراق المجنون فى الحب

وسُئِلَ قيس قبل اختلاط عقله عن أعجب شئ أصابه فى وجده بليلى، فقال:
طَرَقْنَا ذات ليلة أضياف ولم يكن عندنا هَمُّ أَدَمَ (غموس) فبعثنى أبى إلى منزل
عمى أبى ليلى وقال: أطلب لنا منه أَدَمًا، فأتيته، فوقفت على خيائه، فصحت به،
فقال: ما تشاء؟ فقلت: طَرَقْنَا أضياف ولا أَدَمَ عندنا هَم، فأرسلنى أبى نطلب
منك أَدَمًا، فقال: يا ليلى أخرجى إليه ذلك النَّحْيَ (زق السمن) فاملئى له إناءه
من السمن، فأخرجته ومعى قدح، فجعلت تصب السمن فيه وتحدث، فإلهانا
الحديث وهى تصبُّ السمن، وقد امتلأ القدح ولا نعلم جميعاً وهو يسيل حتى
استنقعت أرجلنا فى السمن.

وأتيهم ليلة ثانية أطلب ناراً وأنا متلفع بِبُرْدٍ (ثوب) لى، فأخرجت لى ناراً فى
خرقة، فأعطيتها، ووقفنا نتحدث، فلما احترقت الخُرقة قطعت من بردى خرقة

وجعلت النار فيها، وكلما احتزقت خرقه قطعت أخرى ووضعت بها النار، حتى لم يبق على من البرد إلا ما وارى (ستر) عورتى وما أعقل ما أصنع.

احتجاب ليلي

كان قيس أول ما علق ليلي كثير الزيارة لها والعرب ترى ذلك غير منكر أن يتحدث الفتيان إلى الفتيات، فلما علم أهلها بعشقه لها منعه من إتيانها وتقدموا إليه أن لا يعود إلى التحدث إليها، فطار عقله، وكان أهله يعزونه عنها ويقولون له: نزوجك أنفس جارية فى عشيرتك، فيأبى إلا ليلي ويهدى بها ويدكرها، فيلومونه ويعذلونه على ما يصنع بنفسه وأكثروا عليه فى الملامة والعدل يوما فقال وقد غلب عليه البكاء:

فواكبدا من حُبٍّ ما لا يُجِئنى ومن زَفَرَاتٍ ما هنَّ فَنَاءُ
أثارِكَنى للموت أُنْتِ فَمِيتٌ وما للنفس الخائفاتِ بقاءُ

وذكروا: أن نسوة من عشيرته جلسن إليه، فقلن له: ما الذى دعاك إلى أن أحللت بنفسك كل ما نرى فى هوى ليلي، وإنما هى امرأة من النساء؟ وهل لك فى أن تصرف هواك إلى إحدانا فنساعفك ونجزيك بهواك ويرجع إليك ما غاب من عقلك وجسمك؟ فقال هن: لو قدرت على صرف الهوى عنها إلكن لصرفته عنها وعن كل أحد بعدها وعشت فى الناس مستريحا، فقلن له: فما الذى أعجبك منها؟ قال: كل شئ رأيته وسمعته وشاهدته منها أعجبني. والله ما رأيت شيئا منها قط إلا كان فى عيني حسنا، ولقد جهدت أن يقبح عندي منها شئ أو يسمح أو يعاب لأسلو عنها، فلم أجده، فقلن له: فصفها لنا، فأنشأ يقول:

بيضاء خالصةً البياض كأنها قمرٌ توسَّطَ جُنَحَ ليلٍ مُبرَدٍ
موسومةٌ بالحسن ذاتُ حواسِدٍ إن الجمالَ مَظِنَّةٌ للحَسَدِ

ليلى لا تفى لقيس بوعدھا

وذكروا: أن ليلى وعدته أن يزورها ليلة إذا وجدت فرصة لذلك، فمكث مدة يرأسلھا فى الوفاء وهى تعدّه وتسوّفّه حتى كان يوم خرج فيه الرجال عن الحى، فجلس إلى نسوة من أهلها فى ناحية منها بحيث تسمع كلامه، فحادثهن طويلا، ثم قال: ألا أنشدكن أبياتا صنعتها فى هذه الأيام؟ قلن: بلى، فأنشدهن:

يا للرجال همّ باتَ يعرفونى مُستطرفٍ وقديمٍ كاد يُبلىنى
من عاذرى من غريمٍ غير ذى عُسرٍ يابى فيمطئنى ذئبى ويُلوينى
وما كُشكرى شكرٌ لو يوافقنى ولا مُنأى سواه لو يُواتينى
أطعته وعصيتُ الناس كلهم فى أمره وهواه وهوَ يعصينى

فقلن له: ما أنصفك هذا الغريم الذى ذكرته، وجعلن يتضاحكن من قوله وهو يبكى، فاستحث ليلى منهنّ ورقت له حتى بكت، وقامت ودخلت بيتها، وانصرف.

رسول بينه وبين ليلى

قال رجل من عشيرة قيس له وقد تدله فى حبها: إنى ملّم بمنزل ليلى فهل تودعنى إليها شيئا؟ فقال: نعم، قف بحيث تسمعك ثم قل:

الله يعلم أن النفس هالكة باليأس منك ولكنى أعزّيها
منيتك النفس حتى قد أضربها واستيقنت خلفا مما أمنيها
وساعة منك ألوهها وإن قصرت أشهى إلى من الدنيا وما فيها

فمضى الرجل ولم يزل يرقب خلوة من ليلى حتى وجدها، فوقف عليها، ثم قال لها: يا ليلى لقد أحسن الذى يقول:

الله يعلم أن النفس هالكة باليأس منك ولكنى أمنيها

وأنشد الأبيات، فبكت بكاء طويلا ثم قالت: أبلغه السلام وقل له:

نفسى فداؤك لو نفسى ملكتُ إذن ما كان غيرك يَجْزِيها ويُرضيها
صبرا على ما قضاه الله فيك على مرارة في اصطبارى عنك أخفيها

وأبلغ الفتى قيسا البيتين وأخبره بحالها، فبكى حتى سقط على وجهه مغشيا عليه،
ثم أفاق وهو يقول:

عَجِبْتُ لَعُزَّةِ الْعُذْرَى أَضْحَى أحاديثاً لقوم بعد قوم
وَعُزَّةُ مَاتَ مَوْتاً مُسْتَرْجِئاً وها أنا مَيِّتٌ فى كل يوم

السنة السوء

اجتاز قيس بن ذريح بقيس بن الملوح وهو جالس وحده فى نادى قومه،
وكان كل واحد منهما مشتاقا إلى لقاء الآخر، وكان قيس بن الملوح (المجنون) لا
يحدث أحدا ولا يرد على متكلم جوابا، فسلم عليه قيس بن ذريح، فلم يرد
عليه السلام، فقال له: يا أخى أنا قيس بن ذريح، فوثب إليه، فعانقه، وقال له:
مرحبا بك يا أخى، أنا والله مسلوب العقل، فلا تلمنى، فتحدثا ساعة وتشاكيا
وبكيا، ثم قال له قيس بن الملوح: يا أخى إن منزل ليلى منا قريب، فهل لك أن
تمضى إليها فتبلغها عنى السلام؟ فقال له: أفعَل. فمضى قيس بن ذريح حتى أتى
ليلى فسلم وانتسب فقالت له: حَيَّاكَ اللهُ، ألك حاجة؟ قال: نعم ابن عمك
أرسلنى إليك بالسلام، فأطرقت ثم قالت: ماكنت أهلا للتحية لو علمت أنك
رسوله، قل له عنى: أرايت قولك:

أبتُ لَيْلَةً بِالْغَيْلِ يا أُمَّ مالِكٍ لكم غير حبٍّ صادق ليس يكذب

لقد فضحنى بذكره ليلة الغيل (اسم واد) وأى ليلة هذه؟ وهل خلوت معه فى
الغيل ليلا أو نهارا؟ فقال لها ابن ذريح: يا ابنة عم إن الناس تأولوا كلامه على

غير ما أراد فلا تكوني مثلهم، إنما أخبر أنه رآك ليلة الغيل لا أنه عناك بسوء. فأطوقت طويلا ودموعها تجري وهي تكفكفها، ثم انتحبت، ثم قالت: اقرأ على ابن عمي السلام وقل له: بنفسى أنت، والله إن وجدى بك فوق ما تجد ولكن لا حيلة لى فيك.

شفقة الأم

لما عشق قيس بن الملوح ليلى وهام بها ترك الطعام والشراب، فأشفقت عليه أمه ومضت إلى ليلى، فقالت لها، إن قيسا قد ذهب حبك بعقله وترك المطعم والمشرب فلو جنته وقتنا لرجوت أن يثوب إليه بعض عقله فقالت ليلى: أما نهارا فلا، لأننى لا آمن قومي على نفسى، ولكن ليلا، فأتته ليلا، فقالت له: يا قيس إن أملك تزعم أنك جنت من أجلى وتركت المطعم والمشرب، فاتق الله وأبق على نفسك فبكى وقال:

قالتْ جُنِيتَ على رَأْسِي فَقُلْتُ لها الحبُّ أعظمُ ممَّا بالمجانين
الحبُّ ليس يفيق الدهرَ صاحبه وإنما يُصرِّعُ الجنون في الحين

فبكت معه، وتحدثا حتى كاد الصبح يُسفر، ثم ودعته وانصرفت، فكان آخر عهده بها.

المهدى يرفض قيسا ويهدر الحاكم دمه

كان قيس عند أبيه الملوح أعظم منزلة من إخوته وكان أبوه ذا ثروة، فدفح له خمسين بعيرا وراعيها فى مهر ليلى فلم يقبل أبوها المهدى مع أنه كان أقل منهم ودونهم ثراء، لسنة ذاعت عند العرب، وهى أنهم كانوا يكرهون تزويج اثنين انتشرت الأخبار بمحبتهم.

ولم يكتف المهدى برفضه، فقد أبلغ أمره وعشقه إلى الحاكم، فأهدر دمه إن آتاهم، وتوعده بالقتل إن ألمّ بدارها، فقال:

ألا حُجبت ليلي وآلى أميرها علىَّ يميناً جاهداً لا أزورها
على غير ذنبٍ غير أني أحبها وأنّ فؤادي رهنها وأسيرها

ولما عرف أبوها أن هذا التهديد لا يصرفه عن غشيان داره وأنه لا يزال يطلب فرصة ارتحل بليلى وأبعد، وجاء قيس عشية فأشرف على الدار، فلم يجدها، فقصده مكانها، وألصق صدره به وجعل يمرغ خديه على ترابه وهو يبكي ويقول:

يا صاحبيّ ألبا بي بمنزلةٍ قد مرّ حينٌ عليها أيّما حينٍ
إني أرى رجعات الحب تفتلني وكان في بدنها ما كان يكفيني
ألقي من اليأس تاراتٍ فتفتلني وللرجاء بشاشاتٍ فتحنيني

جنون قيس بليلى

لما بعد المهدى بابتنته ليلي عن قيس ومنازل قومه جُنُّ بها جنونا، فكان لا يعاوده عقله إلا قليلاً، ولم تزل تلك حاله غير مستوحش، إنما يكون في جنبات الحىّ عارياً منفرداً لا يلبس ثوباً إلا خرقةً، وهو يهدى ويخطط في الأرض ويلعب بالتراب والحجارة، ويجمع العظام حوله، ولا يجيب أحداً سألته عن شيء، فإذا أحبوا أن يتكلم أو يثوب إليه عقله ذكروا ليلي، فيقول: بأبي هي وأمي، ويرجع إليه عقله ويخاطبهم فيجيئونهم.

ولما طال على قيس ذلك قال قوم لأبيه: لعل الجن قد أصابته، فكان يأتيه بالتمائم والتعاويد ويرش عليه المساء، لاعتقاد العرب أن الجن تنفر من ذلك، فكان يأبى هذا الصنيع إباء شديداً وينشد:

وجاءوا إليه بالتعاويد والرقي
وقالوا به من أعين الجن نظرة
وصبوا عليه الماء من ألم النكس
ولو عقلوا قالوا به أعين الإنس

توسط نوفل بن مساحق

كان نوفل بن مساحق يتولى جمع الزكاة من بنى عامر لوالى الحجاز من قبل بنى أمية، فسمع بشأن قيس، فرق له، وذات يوم كان يمر بمنازل قومه، فرآه وهو يلعب بالتراب وقد تعرى جسده، فقال لغلام معه: يا غلام هات ثوبا، فأتاه به، فقال لبعض من معه: خذ هذا الثوب، فألقه على ذلك الرجل، فقال له: أتعرفه؟ جعلت فداك، قال: لا، قال: هذا ابن سيد الحى، والله ما يلبس الثياب ولا يزيد على ما تراه يفعله الآن، وإذا طُرح عليه ثوب خرّقه، ولو أنه كان يلبس ثوبا لكان فى مال أبيه ما يكفيه. وحديثه عن أمره، فدعا به نوفل وكلمه، فجعل لا يعقل شيئا يكلمه به، فقال له قومه: إن أردت أن يجيبك جوابا صحيحا، فاذكر له ليلى، فذكرها له، وسأله عن حبه إياها، فأقبل عليه يحدثه بحديثها ويشكو إليه وجده بها وينشده شعره فيها، فقال له نوفل: هل انتهى بك الحب إلى ما أرى؟ قال: نعم وسينتهى بى إلى أشد مما ترى. فعجب منه وقال له: أتحب أن أزوجهك إياها؟ قال: نعم وهل إلى ذلك من سبيل؟ قال نوفل: انطلق معى حتى أقدم على أهلها بك وأخطبها إليك وأرغبهم فى المهر لها. قال قيس له: أتراك فاعلا؟ قال: نعم، قال قيس: سأنظر ما تقول! قال نوفل: لك على أن أفعل ذلك. ودعا له بثياب، فلبسه إياها، وراح معه الجنون كأصح أصحابه يحدثه وينشده. فبلغ ذلك عشيرتها، فلقوه فقالوا: يا نوفل لا والله لا يدخل الجنون منازلنا أبدا أو نموت وقد أهدر لنا السلطان دمه، فأقبل بهم وأدبر، فأبوا. فلما رأى ذلك قال للمجنون: انصرف. فقال له الجنون: والله ما وفيت بالعهد، فقال له: انصرافك بعد أن أياسنى القوم من إجابتك أصلح من سفك الدماء، فقال قيس:

إذا ذُكِرْتُ ليلي عَقَلْتُ وراجعتُ عَوَازِبُ عَقْلِي من هَوَى مُتَشَعِّبٍ
وقالوا صحيحٌ ما به طيفُ جنَّةٍ ولا لهم إلا افتراءُ التكدُّبِ
وشاهدٌ وجدى دمعٌ عيني وحُبُّها بَرَى اللحمَ عن أحناء عظمي ومنكبي
وأصبحت من ليلي الغداة كناظرٍ مع الصبح في أعقاب نَجْمٍ مُغْرِبٍ

ليلى لا تنسى قيسا

خرج رجل إلى أرض نجد في طلب بغية له، فإذا هو بخيمة قد رفعت، وكان
قد أصابه المطر فعدل إليها، وتحنن، فإذا امرأه قد كلمته، وقالت له: انزل،
فنزل، فقالت: سلوا هذا الرجل من أين أقبل؟ فقال: من ناحية تهامة ونجد،
فقالت: أدخل أيها الرجل، فدخل إلى ناحية الخيمة، فأرخت بينها وبينه سترًا، ثم
قالت له: أي بلاد نجد وطئت، فقال كلها وطئت، فقالت له: فيمن نزلت هناك؟
فقال: بنى عامر، فتفتست الصُّعداء ثم قالت فبأي بنى عامر نزلت؟ فقال: بنى
الحريش (وهم قوم قيس). فاستعبرت، ثم قالت: هل سمعتَ بذكر فتى منهم يقال
له: قيس بن الملوِّح ويلقب بالجنون، فقال: بلى والله وعلى أبيه نزلت، وأتيتُه،
فنظرت إليه يهيم في تلك الفياض ويكون مع الوحش ولا يعقل ولا يفهم إلا أن
تذكر له فتاة يقال لها ليلي، فيبكي وينشد أشعارا فيها. ولما سمعت ذلك من
الرجل رفعت السر بينها وبينه والتفت الرجل فإذا فِلَقَةٌ قمر لم تر عينه مثلها،
فبكت حتى ظن أن قلبها قد انصدع، فقال لها: اتق الله أيتها المرأة فما قلت
بأسا. فمكنت طويلا على تلك الحال من البكاء والنحيب، ثم قالت:

ألا ليت شِعري والحُطوبُ كثيرةٌ متى رَحَلُ قيس مُسْتَقِيلُ فراجِعُ
بنفسى مَنْ لا يستقلُّ بنفسه وَمَنْ هو إن لم يَحْفَظِ اللهُ ضائعُ

ثم بكت حتى سقطت مغشيا عليها، فقال لها: من أنت يا أمة الله؟ وما
قصتك؟ قالت: أنا ليلي صاحبته المشتومة والله عليه غير المواسية له.

لقاء مفاجئ

مر الجنون في توحشه بجى ليلي، ولقيها فجأة فعرفها وعرفته فصعق وخسر
مغشياً عليه، فأقبل فتيان من عشيرة ليلي فأخذوه ومسحوا التراب عنه وأسندوه
إلى صدورهم، وسألوا ليلي أن تقف له وقفة، فرقت لما رآته به، وقالت له: أعذر
علىّ بما أنت فيه، ولو وجدت سيلاً إلى شفاء ذلك لوقيتك بنفسى منه، فأفاق
وجلس، وقال: هيهات إن دأى ودوائى أنت وإن حياتى ووفاتى لفى يديك،
ولقد وكلت بى شقاء لازماً وبلاء طويلاً، ثم بكى وأنشأ يقول:

أقول لأصحابي هي الشمس ضوءها قريب ولكن في تناوئها بُعْدُ
لقد عارضتنا الريح منها بنفحة على كبدى من طيب أرواحها بَرْدُ
ومازلت مغشياً علىّ وقد مضت أناة وما عندي جواب ولا رَدُّ
عدينى - بنفسى أنت - وعداً فرما جلا كربة المكروب عن قلبه الوعدُ

زواج ليلي

وتسامع العرب بليلي وعشق قيس بن الملوح لها وجنونه بها، فخطبها
كثيرون، فلم يرضهم أهلها، وخطبها شاب موسر من ثقيف (الطائف) فزوجوه
بها، وأخفوا ذلك عن الجنون، ثم نعى إليه طرف منه فقال:

دعوت إلهى دعوة ما جهلتها ورئى بما تخفى الصدور بصيرُ
فقد شاعت الأخبار أن قد تزوجت فهل يأتيني بالطلاق بشيرُ

وبلغه أن أهلها يريدون نقلها إلى الثقيف فقال:

كان القلب ليلة قيل يغدى بليلى العامرية أو يراخ
قطاة غرها شرك فباتت تجاذبه وقد علق الجناحُ

وكان ينشد وهو يبكى ويتشجع:

أَمْزَعَةٌ لِلَّيْنِ لَيْلَى وَلَمْ تَمُتْ كَأَنَّكَ عَمَّا قَدْ أَظْلَكَ غَافِلُ
سَتَعْلَمُ إِن شَطِئْتُ بِهِمْ غُرْبَةَ النَّوَى وَزَالُوا بَلِيلَى أَنْ لُبَّكَ زَائِلُ

ولما أرادوا الرحيل بها أخذه أبوه، ووقف به مستترا، حتى ينظر إليها وهي راحلة مع زوجها وقومها، لعل ذلك يشفى شيئا من غليله، فلما رآهم يرتحلون بكى أحرَّ بكاء ونشج أحرَّ نشيج، وأنشد في صوت متقطع:

أَلَا أَيُّهَا الْقَلْبُ الَّذِي لَجَّ هَائِمًا بَلِيلَى وَلِيدًا لَمْ تُقْطِعْ ثَمَائِمُهُ
أَفِئْتُ قَدْ أَفَاقَ الْعَاشِقُونَ وَقَدْ أَنَى لِمَا بَكَ أَنْ تَلْقَى طَبِيبًا ثُلَاثِمُهُ
فَمَا لَكَ مَسْلُوبَ الْعَزَاءِ كَأَنَّمَا تَرَى نَأَى لَيْلَى مَغْرَمًا أَنْتَ غَارِمُهُ

فقال له أبوه: ويحك! إنما جئت بك متخفيا ليزوح بعض ما بك بالنظر إليهم، فإذا فعلت ما أرى عُرفت، وقد أهدر السلطان دمك إن مررت بهم، فأمسك أو فانصرف، فقال: ما لي سبيل إلى النظر إليهم يرتحلون وأنا ساكن غير جازع ولا باك، فانصرف بنا، ومضى وهو يقول:

ذُِدِّ الدَّمْعِ حَتَّى يَظْعَنَ الْحَيُّ إِنَّمَا دَمُوعُكَ، إِنْ فَاضَتْ، عَلَيْكَ دَلِيلُ

رفاق قيس يحاولون التسرية عنه

اجتمع إلى قيس بعد زواج ليلي ورحيلها بعض رفاقه ممن كان يألفهم ويأنس إليهم قبل توله بها، فزمزموا عليه أن يخرج معهم متنزهين في أحياء العرب للترويح عن نفسه. ولبى رغبته، فسار معهم تعاوده الصحة دورا والجنون دورا، ومروا في طريقهم بجبلى نَعْمَانُ فقال له بعضهم: هذا جبلا نعمان وكانت ليلي تنزل بهما، فقال: فأى الرياح يأتى من ناحيتهما؟ فقالوا: الصَّبَا، قال: فوالله لا أرىم (أترك) هذا الموضع حتى تهب الصبا، فأقاموا معه ثلاثة أيام حتى هبت، فانطلق معهم، وأنشأ يقول:

أيا جيلي نعمان بالله خَلِيَا سبيل الصَّبَا يَخْلَصْ إِلَى نَسِيمِهَا
أَجْدُ بَرْدَهَا أَوْ تَشْفِ مِنِّي حَرَارَةَ عَلَى كَبِدٍ لَمْ يَبْقَ إِلَّا صَمِيمِهَا
فَإِنَّ الصَّبَا رِيحٌ إِذَا مَا تَنَسَّمَتْ عَلَى نَفْسٍ مَحْزُونٍ تَجَلَّتْ هَمُومِهَا
وَيَنِمَا كَانُوا يَسِيرُونَ أَمْطَرْتَهُمُ السَّمَاءُ مَطَرًا شَدِيدًا أَعْقَبْتَهُ سَيُولُ كَثِيرَةً،
جَعَلَتْ عِبْرَاتِهِ تَسِيلُ، وَأَنْشَدَ بِصَوْتٍ حَزِينٍ لَمْ يَنْسَهُ رِفَاقَهُ وَلَا نَسُوا حَرْقَتَهُ أَبَدًا:

جَرَى السَّيْلُ فَاسْتَبَكَانِي السَّيْلُ إِذْ جَرَى وَفَاضَتْ لَهُ مِنْ مُقَلَّتِي غُرُوبُ
وَمَا ذَاكَ إِلَّا حِينَ أَيقَنْتُ أَنَّهُ يَكُونُ بَوَادٍ أَنْتَ فِيهِ قَرِيبُ
يَكُونُ أَجَاجًا دُونَكُمْ فَإِذَا انْتَهَى إِلَيْكُمْ تَلَقَّى طَيْبَكُمْ فَيْطِيبُ
أَظْلُ غَرِيبَ الدَّارِ فِي أَرْضٍ عَامِرٍ أَلَا كُلُّ مَهْجُورٍ هُنَاكَ غَرِيبُ
وَإِنَّ الْكَيْبَ الْفَرْدَ مِنْ أَيْمَنِ الْحِمَى إِلَى وَإِنْ لَمْ آتِهِ حَبِيبُ
وَلَا خَيْرٌ فِي الدُّنْيَا إِذَا أَنْتَ لَمْ تَزُرْ حَبِيبًا وَلَمْ يَطْرُبْ إِلَيْكَ حَبِيبُ
وَعَفَلُوا عَنْهُ لَيْلَةً، ثُمَّ افْتَقَدُوهُ فَلَمْ يَجِدُوهُ، فَرَكِبَ ابْنُ عَمٍّ لَهُ فِي طَلَبِهِ، فَرَأَاهُ
عِنْدَ مَشْرَعَةِ مَاءٍ وَهُوَ يَتَحَدَّثُ إِلَى رَجُلَيْنِ قَدْ صَادَا ظُبِيَّةً، وَرَبَطَاهَا بِحَبْلِ، وَعَيْنَاهُ
تَدْمَعَانِ، يَقُولُ لهُمَا: خَلَاها وَخَلَا مَكَانَهَا بَعِيرِي، وَهُوَ يَنْشُدُ:

يَا صَاحِبِيَّ اللَّذِينَ الْيَوْمَ قَدْ أَخَذَا فِي الْحَبْلِ شِبْهًا لِلَّيْلِ ثُمَّ غَلَاها
إِلَى أَرَى الْيَوْمَ فِي أَعْطَافِ شَاتِكَمَا مِثَابَهَا أَشْبَهْتُ لَيْلِي فَخَلَاها
فَحَلَّ الرِّجْلَانِ وَثَاقَهَا فَوَلَتْ تَعْدُو هَارِيَةً مَذْعُورَةً، فَقَالَ:

أَيَا شِبْهَ لَيْلِي لَا تُخَافِي فَإِنِّي لَكَ الْيَوْمَ مِنْ وَحْشِيَّةٍ لَصَدِيقُ
وَيَا شِبْهَ لَيْلِي لَوْ تَلَبَّثْتَ سَاعَةً لَعَلَّ فَوَادِي مِنْ جَوَاهِ يُفِيقُ
تَفِرُّ وَقَدْ أَطْلَقْتُهَا مِنْ وَثَاقِهَا فَأَنْتَ لِلَّيْلِ لَوْ عَلِمْتَ طَلِيقُ

وحاول ابن عمه أن يعود به إلى رفاقه فأبى إلا الرجوع إلى منازل قومه، فرافقته،
وهو في طول طريقه يتن ويتفجع وينشد:

تذكّرتُ ليلي والسّنين الخوالي	وأيامَ لا أُغدّي على الدهرِ عاديّا
خليليّ لا والله لا أملكُ الذي	قضى الله في ليلي ولا ما قضى ليّا
قضاها لغيري وابتلاني بحبّها	فهلّا بشي غير ليليّ ابتلانيّا
قضى الله بالمعروف منها لغيرها	وبالشوق مني والغرام قضى ليّا
وما أشرف الأيفاع إلا صبايئة	ولا أنشد الأشعارَ إلا تداويّا
أعُدُّ الليالي ليلةً بعد ليلةٍ	وقد عشتُ دهرًا لا أعُدُّ اللياليّا
أحبُّ من الأسماء ما وافق اسمها	وأشبهه أو كان منه مُدانيّا
وإني لأستغشي وما بي نعسة	لعل خيالًا منك يلقى خيالِيّا
هي السحرُ إلا أنّ للسحر رُقِيّةً	وإني لا أُلقي لها الدهرَ راقِيّا

تردده على جبل التوباد

كان قيس وليلي، وهما صبيان، يرعيان أغنام أبويهما عند جبل التوباد، وهو جبل في ديارهما، فلما ذهب عقله وتوحش كان يجي إلى ذلك الجبل فيقيم فيه، فإذا تذكر الزمن الذي كان يطيف به هو وليلي جزع واستوحش وهام على وجهه حتى يأتي نواحي الشام، فإذا تاب إليه عقله رأى ديارا ومواقع لا يعرفها، فيقول للناس الذين يلقاهم: بأبي أنتم أين التوباد من أرض بني عامر؟ فيقولون له: وأين أنت من أرض بني عامر؟ أنت بالشام، عليك بنجم كذا في السماء، فسر على جهته حتى تصل إلى ديار قومك. فيمضي على وجهه متبعا ذلك النجم، حتى يقع بأرض اليمن، فيرى ديارا ينكرها وقوما لا يعرفهم، فيسألهم عن التوباد وأرض بني عامر، فيقولون له: وأين أنت من أرض بني عامر؟ عليك بنجم كذا وكذا. ولا يزال على ذلك حتى يقع على التوباد، فإذا رآه بكى وقال:

وأجهشتُ للتوباد حين رأيته وكبر للرحمن حين رآني
وأذريتُ دمع العين لما عرفته ونادى بأعلى صوته فدعاني

فقلتُ له: قد كان حولك جيرةٌ وعهدي بذاك الحى منذ زمان
فقال: مَضَوْا واستودعوني حديثهم ومن ذا الذى يبقَى على الحداثِ
والى لأبكى اليومَ من حَلَدَى غداً فِرَاقُكَ والحَيَّانِ مؤتلفانِ
سِجَالاً وتَهْتَاناً ووثلاً وديمةً وسَحّاً وتَسْكَاباً إلى هَمَلانِ

رجل يذم له ليلي

سأل الملوّح أبو الجنون رجلاً قدم من الطائف أن يمر بانجنون فيجلس إليه
ويخبره أنه لقي ليلي وجلس إليها ووصف له صفات منها ومن كلامها يعرفها
الجنون، وقال له حدثه بها، فإذا رأيته اشرأبٌ لحديثك واشتهاه فعرفه أنك ذكرته
لها ووصفت ما به فشتمته وسبته وقالت إنه يكذب عليها ويشهرُ بها بفعله،
وانها ما اجتمعت معه قط كما يصف. ففعل الرجل ذلك، وجاء إليه فأخبره
بلقائه لها، فأقبل عليه وجعل يسأله عنها، فيخبره بما أمره به الملوّح فيزداد نشاطاً
ويثوب إلى عقله، إلى أن أخبره بسبها إياه وشتمها له، فقال وهو غير مكترث لما
حكاه عنها:

تَمْرُ الصَّبَا صَفْحاً بِسَاكِنِ ذِي الْحِمَى وَيَصْدَعُ قَلْبِي أَنْ يَهْبُ هُبُوبُهَا
قَرِيبةٌ عَهْدٍ بِالْحَبِيبِ وَإِنَّمَا هُوَ كُلُّ نَفْسٍ حَيْثُ حَلَّ حَبِيبُهَا
حَلَالٌ لِّلَّيْلِ شَتْمُنَا وَانْتِقَاصُنَا هَنِيمًا وَمَغْفُورٌ لِّلَّيْلِ ذُنُوبُهَا

حججه مع أبيه إلى الكعبة

ولما سلب الجنون عقله وطال عليه جنونه قال الحى لأبيه: احجج به إلى مكة
وادع الله عز وجل له، ومره يتعلق بأستار الكعبة، فيسأل الله أن يعافيه مما به
ويغضبها إليه، فلعل الله أن يخلصه من هذا البلاء. وبينما الملوّح سائر مع ابنه فى
بعض الأودية إذا حمام يتجاوب، فبكى الجنون وأنشد:

ألا يا حَمَامَ الْأَيْكِ مَا لَكَ يَا كِيَا أَفَارَقْتَ إِلْفًا أَمْ جَفَاكَ حَبِيبُ
دَعَاكَ الْهُوَى وَالشُّوْقُ لِمَا تَرْتَمْتُ هَتُوفُ الضُّحَى بَيْنَ الْغُصُونِ طَرُوبُ
تُجَاوِبُ وَرُقًا قَدْ سَمِعَنْ لَصُوتَهَا فَكُلُّ لِكُلِّ مُسْعِدٌ وَمُجِيبُ

وكان أبوه يرق له، فيقبل عليه في أثناء سيرهما يخاطبه ويسأله ويعظه، وهو
ينظر إليه كأنه لا يفهم ما يقول فقد غمره ما هو فيه من الهوى والعشق. فلما
طال خطابه إياه قال له: يا بنى أما لكلامى جواب، فقال له: والله يا أبى ما
علمت أنك كلمتنى فأعذرلى فإنى كما ترى مذهوب بى، ثم أنشأ يقول:

وشغلت عن فهم الحديث سوى ما كان منك فإنه شغلى
وأديم لحظ محذئ ليرى أن قد فهمت وعندكم عقلى

ولما صار مع أبيه بمكة كان يصنع صنيعا يرحمه منه عدوه، إذ يقول آخر جرنوى
إلى الجبال لعلى أننسم صبا لجند، فيخرجونه، فيتوجه نحو لجند، ويتنفس تنفسا يظن
معه أن كبده قد انصدعت. وكان لا يلقى لجنديا حتى يسأله عن وديان لجند واد
واد وموضع موضع، فيخبره وهو يبكى أحر بكاء وأوجعه للقلب، قائلا:

ألا حبذا لجند وطيب ترابها وأرواحها إن كان لجند على العهد

ولما انتهى إلى منى سمع صائحا فى الليل يصيح: يا ليلى، فصرخ صرخة ظنوا
معه أن نفسه قد تلفت وسقط مغشيا عليه، فلم يزل كذلك حتى أصبح، ثم
أفاق حائل اللون ذاхла، فأنشأ يقول:

عرضت على قلبى العزاء فقال لى
إذا بان من تهوى وأصبح نائيا
وداع دعا إذ نحن بالخيف من منى
دعا باسم ليلى غيرها فكأنما
دعا باسم ليلى ضلل الله سعيه
من الآن فأئس لا أغرك بالصبر
فلا شئ أجدى من حلولك فى القبر
فهيج أشجان الفؤاد وما يدرى
أطار بليلى طائرا كان فى صدرى
وليلى بارضى عنه نازحة فقير

ولما هبط من منى قال له أبوه: تعلق بأستار الكعبة وسل الله عز وجل أن يعافيك من حب ليلي، فتعلق بأستار الكعبة وقال: اللهم زدنى بليلى حبا وبها كلفا ولا تنسنى ذكرها أبدا، وقال فى بعض دعائه:

دعا المحرمون الله يستغفرونه	بمكة وهنا أن تمحى ذنوبها
وناديت أن يارب أول سؤلنى	لنفسى ليلي ثم أنت حسيها
فإن أعط ليلي فى حياتى لا يتب	إلى الله خلق توبة لا أتوبها
وكم قائل قد قال تب فعصيته	وتلك لعمري توبة لا أتوبها
فيا نفس صبرا لست والله فاعلمى	بأول نفس غاب عنها حييها

وهام من حينئذ واختلط عقله، فكان ينطلق فى الصحراء مع الوحش، لا يأكل إلا ما يبيت فى الصحراء من بقل ولا يشرب إلا مع الظباء إذا وردت مناهلها. وطال شعر جسده ورأسه وألفته الوحوش فكانت لا تنفر منه.

مع نوفل بن مساحق ثائية

لم يزل نوفل بن مساحق من يوم ذهابه مع قيس إلى أهل ليلي يخطبها له منهم متطبلا لأخباره جامعا لأشعاره ويقال إنه سأل عنه فى سنة من السنين، فقال له أهله: توحش وما لنا به عهد ولا ندري إلى أين صار فخرج من عندهم وأوغل فى البادية يتصيد الوحش، ومعه جماعة من أصحابه، حتى إذا كان ببعض النواحي إذا هو بأراكة (شجرة كبيرة) عظيمة وقد بدا منها قطيع ظباء وفيها شخص إنسان يرى من خلل تلك الأراكة، فعجب أصحابه من ذلك، وعرفه نوفل. فنزل عن دابته وتحفف من ثيابه وخرج يمشى رويدا، حتى أتى الأراكة، فارتقى حتى صار فى أعلاها، وأشرف عليه وعلى الظباء، فإذا به قد تدلى الشعر على وجهه. فلم يكده عرفه إلا بعد تأمل شديد، وهو يرتعى من ثمر تلك الأراكة، فرفع رأسه، فتمثل نوفل ببيت من شعره:

أتبكي على ليلي ونفْسُك باعدتْ مزارك من ليلي وشعبا كما معا
ففرت الطباء واندفع في باقي القصيدة ينشدها، في أحسن نغمة وأجمل صوت،
وهو يقول:

وما حَسَنَ أنْ تَأْتِيَ الأمر طائعا وَتَجْزَعُ أنْ داعي الصبابة أسمعنا
وأذكرُ أيامَ الحِمَى ثم أنثى على كبدى من خشية أن تصدعا
وليست عشيَّاتِ الحِمَى برواجع عليك ولكن خلَّ عينيك تَدَمَّعا

واسترسل في إنشاد القصيدة، ثم سقط مغشيا عليه، فتمثل نوفل ببعض شعره،
فرفع رأسه إليه، وقال له: من أنت حيّاك الله؟ فقال: أنا نوفل بن مساحق،
فحياه، ثم سحّت له الطباء، فزكه وقام يعدو في إثرها لا يلوى على شيء.
ومضى نوفل إلى أصحابه فحدثهم بما كان من أمره معه.

نهاية المجنون

ظل قيس يهيم في فيافى لجذ مع الوحوش، وكان يقرب أحيانا من حتى بنى
عامر، فيتعهده أهله ويرسلون إليه بالطعام مع حاضنة له كان يأنس لها. وروى
أصحاب الأخبار أن رجلا من قبيلة بنى مرة خرج إلى أرض بنى عامر ليلقاه،
فلما سألهم عنه دلوه على فتى من الحى كان له صديقا، وقالوا إنه لا يأنس إلا به
ولا يأخذ أشعاره عنه إلا هو. فأتاه، فسأله أن يدلّه عليه، فقال له: إن كنت تريد
شعره فكل شعر قاله إلى أمس عندي وأنا ذاهب إليه غدا، فإن كان قال شيئا
أتيتك به. فقال له: بل إنى أريد لقاءه، فقال: إننى إن جئت معك نفر منك ونفر
منى وذهب شعره، فقال له: بل دلنى عليه وأنا أذهب إليه وحدى. فقال له:
اطلبه فى هذه الصحارى فإذا رأيته فادن منه مستانسا ولا تظهر له أنك تهابه،
وستره يتهددك ويتوعدك بشئ يريد أن يرميك به، فلا يروعنك، واصبر
بصرك عنه والحظه أحيانا، فإذا رأيته قد سكن من نفاره، فأنشده شعرا غزلا فإنه

يسكن إليك.

وخرج الرجل فطلبه يومه إلى العصر، فوجده جالسا على رمل قد خط فيه
ياصبغه خطوطا، فدنا منه غير منقبض فنفر منه نفور الوحش من الإنس وكانت
إلى جانبه أحجار، فتناول حجرا منها، فأعرض عنه الرجل. ومكث قيس ساعة
كأنه نافر يريد القيام. ولما طال جلوس الرجل سكن فأقبل يخط ياصبغه، فاتجه
إليه، وقال: أحسن والله من يقول:

وإلى لَمْفَنِ دَمْعٍ عَيْنِيَّ بِالْبُكَاءِ جِدَارَ الَّذِي قَدْ كَانَ أَوْ هُوَ كَائِنِ
فأقبل على الرجل يبكي حتى ظن أن نفسه قد فاضت وحتى رأى دموعه قد
بلّت الرمل الذي بين يديه، وأنشأ يقول:

وَأَذْلَيْتَنِي حَتَّى إِذَا مَا سَبَيْتَنِي بِقَوْلِ يُجِلُّ الْوَحْشَ سَهْلَ الْأَبَاطِحِ
تَنَاءَيْتَ عَنِّي حِينَ لَا لِي حِيلَةٌ وَخَلَفْتَ مَا خَلَفْتَ بَيْنَ الْجَوَانِحِ

ثم سنحت له ظبية فوثب يعدو خلفها حتى غاب عن الرجل، وعاد إليه من
غد فطلبه فلم يجده، وجاءت حاضنته التي تأتيه بالطعام فوجدت ما تركته له
بالأمس على حاله. ولما كان في اليوم الثالث غدا عليه وجاء أهله معه فطلبوه
جميعا، فلم يجده، وفي اليوم الرابع تبعوا أثره حتى وجدوه في واد كثير
الحجارة وهو ميت بين تلك الحجارة، فاحتملوه وغسلوه وكفنوه ودفنوه.

فجيلة أهله به

لم تبق فتاة من بنى عامر إلا خرجت حاسرة صارخة عليه تندبه، واجتمع
فتيان الحى يكون عليه أحر بكاء وينشجون أشد نشيج، وحضرهم حى ليلي
معزين وأبوا معهم، فكان أشد القوم جزعا وبكاء عليه، وجعل يقول: ما
علمت أن الأمر يبلغ كل هذا، ولكنى كنت امرأ عرييا أخاف العار وقبح

الأحدوثة فزوجتها وخرجت عن يدي، ولو علمت أن أمره يجرى على هذا ما
أخرجتها عن يده ولا احتملت ما كان في ذلك. وما رُئى يوم كان أكثر باكية
وباكية على ميت منه، ويقال إنهم لما حملوه وجدوا خرقه كتب فيها:

ألا أيها الشيخُ الذى ما بنا يرضى شقيتَ ولا هُنيتَ من عيشك الحَفْضا
شقيتَ كما أشقيتني وتركنتي أهيمُ مع الهلاكِ لا أطعمُ الغمضا

موت ليلي

لما بلغ ليلي نبأ وفاة المجنون بكته بكاء مرا، وظلت تندبه أياما، وراجعها
زوجها "ورد"، فلم تستمع إليه، بل تمادت في حزنها، فقال لها غاضبا: والله لقد
هممت بتخلية سيالك، فقالت: لوددت أنك فعلت وأنى عمياء، فوالله ما
تزوجتك رغبة فيك، ولقد كنت آليت على نفسي أن لا أتزوج غير قيس أبدا،
ولكن أبى غلبنى على أمرى، ووالله إنى لزائرة قبر قيس وفاء له. وتجهزت
للمسير، ورحلت، حتى نزلت فى منازل قوم المجنون، فرآها أهلها، فجاءوها
مسلمين، فسألتهم عن قبره، فعرفوها به، فذهبت إليه وبكت وناحت بقول
المجنون:

لقد عنيتنى يا حَبَّ لَيْلى فَقَعَ إما بموتٍ أو حياةٍ
فإن الموتَ أيسرُ من حياةٍ منغصّةٍ لها طعمُ الشتاتِ
وقالَ الآمرونَ تعزُّ عنها فقلتُ نعم إذا حانت وفاتى

ثم قالت: أما أنى لا أعزى عنك يا حبيبى ولا أسلوك أبدا، وأنت ورفعت
صوتها تقول:

أبلى الثرى وترابُ الأرض جِدَّتْه وزادنى الموتُ أشجانا على شجنى
أبكى عليه حيننا حين أذكره حينَ والهةٍ حنّت إلى سكنِ

أبكى على من حنّت ظهري مصيبتُهُ وطَيّرَ النومَ عن عيني وأرّقني
والله لا أنسَ حبي الدهرَ ما سَجَعْتُ حمامةً أو بكى طَيَّرَ على فنّ

وجعلت تردد على قبره أياما، وتمكث عنده باكية إلى الغروب. وأتاها زوجها، فاعتذر لها، وبالغ في اعتذاره، فلم تقبل منه، وظلت أربعين يوما تخرج إلى قبر قيس وتندبه، حتى إذا كان اليوم الأخير زادت في البكاء والعويل، وألصقت خدها مرارا بالقبر وهي تصيح بأعلى صوتها:

كفى حَزْنا أني أروح بحسرة وأغدو على قبرٍ ومن فيه لا يدري
فيا نفس ذوقي حُتْفَ عمرك عنده ولا تبخلى بالله يا نفس بالعمر
فما كان يَأْبَى أن يَجُودَ بنفسه ليفديني لو كنت صاحبة القبر

وأغرقت في الندب والتحيب، وانكبت على القبر تقبله وتعانقه، ثم شهقت شهقة مديدة، وصمتت إلى الأبد. وحُرِكت، فإذا هي قد ماتت.

جَمِيلٌ وَبُثِينَةٌ

أول الحب

فى مساكن بنى عذرة حول تيماء ووادى القرى بشمالى الحجاز نشأ جميل وبثينة، وأول ما كان من تعلق جميل بصاحبته أنه أقبل يوما يابل له حتى أوردتها ماء فى واد يسمى وادى بغيض، وكان ينزل به قوم بثينة، وتصادف أن كانت هى وإحدى صواحبها تردان الماء، تستقيان منه، فمرت على بعير له، فنفرهما، فتعرضت لجميل ببعض القول، فوقعت من حينئذ فى نفسه، وأخذ ينظم فيها بعض غزله ونسيبه.

ولما عرفت بثينة أن جميلا أحبها ونسب بها حلفت لا يأتياها على خلاف إلا خرجت إليه ولا تتوارى منه أبدا، فكان يأتياها عند غفلات الرجال، فيتحدث إليها ومع أخواتها، وظلا على ذلك حينا طويلا يتلاقيان ويتشاكيان اهوى.

بأعين أبيها وأخيها

وسعت جارية لبثينة بها إلى أبيها وأخيها، وقالت لهما إنها واعدت جميلا الليلة، وهى معه الآن، فأتياها مشتملين على سيفين، فرأياها جالسا بعيدا عنها بحيث تسمع حديثه، وهو يشكو إليها بثه وحبه، وفى أثناء حديثه قال لها: يا بثينة أرايت ودى إياك وشغفى بك ألا تجزيه؟ قالت: بماذا؟ قال: بم يكون بين المتحابين، فأنكرت عليه قوله. فقال: والله ما أردت قبيحا، إنما أردت أن أبلوك، ولو رأيت منك مساعدة لى لضربتك بسيفى هذا وهجرتك هجر الأبد، أو ما سمعت قولى:

وإني لأرضى من بُشينة بالدى لو ابصره الواشى لقرتُ بلابلهُ
 بلا، وبأن لا أستطيع، وبألنى وبالأمل المرجو قد خاب آملهُ
 وبالنظرة العجلى وبالحول تنقضى أواخره لا تلتقى وأوائله
 فقال أبوها لأخيها: قم بنا فما وجدنا عليهما من ريبة، وانصرفا وتركاهما.
 والتفت جهيل إلى بشينة وقال:

لقد قلت فى حبي لكم وصباتى محاسن شعر ذكرهن يطولُ
 فإن لم يكن قولي رضاك فعلمى هبوب الصبا يا بشن كيف أقول
 فما غاب عن عيني خيالك لحظة ولا زال عنها، والخيال يزول
 وما زالا يتحدثان حتى أصبحا فودعها وداع الحب الواقع.

هجر ثم وصل

وحدث يوما أن أقبلت بشينة على فتى من عشيرتها، لى أثر هذا الإقبال فى
 نفس جهيل، فأنشد توا:

وعُدنا كأننا لم يكن بيننا هوى وصار الذى حلّ الحبال هوى لها
 وقالوا نراها يا جهيل تبدلت وغيرها الواشى فقلت: لعلها
 وذهب يندب حظه فى أشعار كثيرة، يذكر فيها هجرها وأنها لم تحافظ على
 عهد لها، وقال فيما قال:

يا لبتنى ألقى المنية بغتة إن كان يوم لقاءكم لم يُقدّر
 أو أستطيع تجلداً من ذكركم فيفبق بعض صباتى وتفكرى
 يهواك ما عشتُ الفؤاد فإن أمت يتبع صدائى صدائى بين الأقبّر
 ورقّت له، فواعده، والتقى، وأخذ كل منهما يشكو صاحبه، وقد بلغ الأمر
 من جهيل كل مبلغ، فأنشأ يقول:

لقد خفتُ أن يغتالني الموتُ عنوةً وفي النفس حاجاتُ إليك كما هيا
وإني لتُشْبِنِي الحفيظةُ كلما لقيتُك يوماً أن أبثك ما ييا
فالتفتت بثينة إلى مولاة لها كانت معها وقالت لها: ما أحسن الصدق بأهلك،
ونظرت إلى جميل وقالت له: أنشدني قولك:

تظل وراء السَّترِ ترُنُو بلحظها إذا مرَّ من أترابها من يروقها
فأنشدتها إياها فبكت، وقالت: كلا يا جميل ومن ترى أنه يروقني غيرك.

أهل بثينة يمنعون جميلاً من لقائها

شاع شعر جميل في بثينة، وكان من عادة العرب حين يكثر شاعر من غزل
بفتاة أن يمنعوه من لقائها حتى لا يفضحهم بها، فتعرض له أبوها وأخوها
يتهددانه بالقتل إن هو عاد إلى صباه بها وفضيحتها في أحياء العرب. فكان
يقول: والله القتل أحبُّ إليَّ من عدم لقائها، وإني لأتمنى الموت فيها وينشد:

فليت رجلاً فيك قد نلروا دمي وهموا بقتلي يا بشينَ لَقُونِي
إذا ما رأوني طالعا من ثنيةٍ يقولون: من هذا وقد عرفوني
يقولون لي: أهلاً وسهلاً ومرحباً ولو ظفروا بي ساعةً قتلوني

وكانوا كلما غي إليهم أنه قريب من دارهم حرسوها ومنعوها من لقائه،
فكان يظن أنها هجرته، وكان نساء الحى يقرَّعنه بذلك ويقلن له إنها مشغولة
بغيرك، وإنما حصلت منها على الباطل والكذب، وغيرها أولى بوصلك منها،
كما أن غيرك يحظى بها، فكان يقول:

منيتني فلونيت ما منيتني وجعلت عاجلاً ما وعدت كآجلٍ
وتشاقلت لما رأت كلفي بها أحبَّ إليّ بذلك من متشاقلٍ
وأطعت في عوادلا فهجرتني وعصيت فيك وقد جهذت عوادلي

حاولنني لأبتّ حبّك وصالكم مني، ولست وإن جهّذن بفاعل
ويقلن إنك قد رضيت بباطل منها فهل لك في اجتناب الباطل
ولباطلٍ مما أحبّ حديثه أشهى إلى من البغيض الباذل
ليزّرن عنك هواي ثم يصلنني وإذا هويت فما هواي بزائل

لقاء على غير موعد

ظل جميل ممنوعاً من لقاء بثينة مدة وهو لا يتعرض لها بجهد، فلا يصل إليها، وبينما هو ذات ليلة جالس في أشجار بالقرب من حيفا، وقد أقام فيها ثلاث ليال ينتظرها، وإذا بشخص قد أقبل إليه، فانتضى سيفه خائفاً، وإذا هي بثينة، فتعانقا طويلاً. وجلسا صامتين، وجميل لا يستطيع أن يحدثها ولا أن يراجعها كلمة حتى أسفر الصبح، فودع كل منهما صاحبه، ولم يلبث أن ذكر ما كان فيه فقال:

وإنّك قد شطّطت نواها وقد نأت فإن النوى مما تُشيت وتجمع
وإن يك طول الحب يا قلب نافعي فقد طالما أحبيت والصبر أنفع
ولست كمن يُفشي على الخدن سرّه وعندى له في الصدر سرٌّ وموضع
وأنسى إذا لاقيتها بخلائها من القول ما قد كنت بالأمس أجمع
فيا رب حبّني إليها وأعطني الـ مودة منها أنت تعطي وتمنع
والا فصبري وإن كنت كارها فإلى بها يا ذا المعارج مولع
وفي الصبر عن بعض المطامع راحة إذا لم يكن في الشئ ترجوه مطعم

رسول إلى بثينة

كان كثير صاحب عزة يالف جيلاً ويلزمه، فلقبه يوماً، فقال له: من أين أقبلت؟ فقال: من عند أبي الحبيبة - يعني بثينة - فقال له: وإلى أين تمضي؟

فقال إلى الحبيبة - يعنى عزة - فقال له: لا بد من أن ترجع عودك على بدئك، فتأخذ لى موعداً من بثينة، فقال كثير: عهدى بها وبأبيها الساعة، وأستحي أن أرجع، فقال جميل: لا بد من ذلك. فقال له كثير: فمتى كان آخر عهدك بها؟ قال جميل: فى أول الصيف، وقد وقعت سحابة بأسفل وادى الدّوم، إذ خرجت ومعها جارية لها تغسل ثيابا، فلما أبصرتنى أنكرتنى، وضربت بيديها إلى ثوب فى الماء فغطت نفسها به، وعرفتني الجارية فأعادت الثوب فى الماء وتحدثنا حتى غابت الشمس. وسألتها موعداً، فقالت: أهلى سرتحلون عن قريب. وما وجدت أحداً آمنه فأرسله إليها. فقال كثير له: فهل لك فى أن آتى الحلى فأقتل بأبيات من شعر أذكر فيها هذه العلامة إن لم أقدر على الخلوة بها؟ قال جميل: ذلك الصواب. فأرسله إليها، فقال له كثير: انتظرنى.

ثم خرج كثير حتى أناخ بدار بثينة ناقته، ورآه أبوها، فقال له: ما وراءك؟ قال كثير: ثلاثة أبيات عرضت لى فأحببت أن أعرضها عليك، قال هاتها، قال كثير: فأنشدته وبثينة تسمع:

فقلت لها يا عزّ أرسل صاحبى	إليك رسولا والموكل مُرسلُ
بأن تجعلى بينى وبينك موعداً	وأن تأمرينى ما الذى فيه أفعّل
وآخر عهدى منك يوم لقيتني	بأسفل وادى الدوم والثوب يغسلُ

فضربت بثينة جانب خدرها، وقالت: اخسأ، اخسأ، فقال أبوها: ما الذى بك يا بثينة؟ قالت: كلب يأتينا إذا نام الناس من وراء الرابية. ثم قالت للجارية: ابغينا من الدّومات حطباً لنذبح لكثير شاة ونشويها له، فقال كثير: أنا أعجل من ذلك.

وراح كثير إلى جميل فأخبره، فقال له جميل: الموعد الدّومات. وقالت بثينة لبنات خالتها: أم الحسين وليلى ونجدة وكانت قد أنست إليهن واطمأنت بهن:

إنى قد رأيت فى لحن نشيد كثير أن جميلا معه. وخرج كثير وجهيل حتى أتيا الدومات، وجاءت بثينة ومن معها، فما برحوا حتى برق الصبح، فكان كثير يقول: ما رأيت مجلسا قط أحسن من ذلك ولا مثل علم أحدهما بضمير الآخر، ما أدري أيهما كان أفهم.

مبارزة

خطب جميل بثينة من أبيها فردّه، لكرهه العرب أن يزوجوا بناتهم ممن يشهرون بهن ويتغزلون فيهن، فخطبها ابن عم لها يسمى نبيها، فوعده أبوه أن يزوجه منها، غير أنها لم ترضه لنفسها إذ كان قبيحا دميما فى إحدى عينيه نكتة بياض قبيحة. وحدث أن خرج جميل وابنا عمه: روق ومسعدة وخرج معهما نبيه إلى الصيد، فمر بهم رجل من قبيلة خزاعة كان قويا يهوى المبارزة والمصارعة، فقال له نبيه: هل لك فى مصارعتى؟ قال: ذلك إليك، فتصارعا، فصرعه الخزاعى وجلس على صدره. فضحك جميل وصاحباه من ذلك، فقام نبيه إلى الخزاعى، فقال له: عاودنى، فقال: لا أفعل، فتعلّق به. فقال له جميل: ماذا تريد من الرجل؟ طالبتة بالصراع، فصرعك، والمعاودة إليه إن أرادها، وإلا فلا سبيل لك عليه. قال: أفتصارعنى يا جميل؟ قال: وما تريد بذلك؟ قال: أحبه وأشتهيه. قال جميل: فوالله مالك فيه خير، فإن أحببته على ذلك فهلّم.

وتصارعا فصرعه جميل. ثم سأله المعاودة فصرعه ثانية، ثم سأله المعاودة الثالثة فصرعه. وقام نبيه فأنصرف إلى الحى مغضبا، وأقام جميل مع ابنى عمه على صيدهم. وسأل فتيان العشرة نبيها عن سبب رجوعه دون أصحابه، فقال: دعانى جميل إلى المصارعة، فكرهت ذلك، ثم ألح على، فصارعته، فصرعته، فوثب على ابنا عمه، فحيانى عنه وألقياه على صدرى، فرجعت مغضبا. فقالوا له: ما كان ينبغى لك أن تصارع ابن عمك. وإذ قد جرى هذا فلا ينبغى لك أن

تفيض في ذكره ولا تعيده. ولكنه مضى يذيع ذلك فقالت بثينة: كذب والله نبيه لو صرع جميلا ما غم وجهه وتكدّر ولكن جميلا صرعه، فجاء مغضبا، وتضاحكت به هي ونساء الحى. وعاد جميل وصاحباها فتحدثوا بالخبر على وجهه الصحيح.

زواج بثينة

أخ نبيه منذ صرعه جميل على أبى بثينة أن يزوجه منها، وبدل له مالا عظيما وكان كثير المال، فتزوجها ودخل بها على كره منها. ولما بلغ ذلك جميلا وعرف أنها لم تعد من حظه بكى أحر بكاء، وأنشد:

أعاذلّ قد أكثرت جهلا من الجهل على غير شئ من ملامى ومن عذلى
ولو تركت عقلى معى ما طلبتها ولكن طلايها لما فات من عقلى
فيارب ما وقّيت شيئا فوقها ختوف الردى يا رب واجمع بها شملى
فانت حديث النفس إن كنت خاليا وجلّ حديثى أنت فى الجدل والهزل
فلا تقتلينى يا بشين فلم أصب من الأمر ما فيه يحلّ لكم قتلى
ويا رب لا تجعل بثينة شقوة على ولا تجعل بهجرانها قتلى

بثينة لا تنسأه

ما برحت بثينة بعد زواجها تذكر جميلا وتسأل عن شعره الذى ينظمه فى هواها، وكان لا يزال يلم بيتها فرأته جارية لها فلم يكلمها ولا أعلمها أنه قصد صاحبته، وجلس غير بعيد مستظلا بشجرة. فبادرت الجارية إلى بثينة فأعلمتها. فجاءت هى وبعض بنات خالتها: أم الحسين وليلى ومعهن عجوز تسمى أم منظور، فلما رأينه سلّمن عليه وجلس إليهن، فقالت له أم منظور: أين كنت بعدنا؟ لقد طال شوقنا إليك فقال: كنت فى أهلى إذ رأيت التباعد عما أحدث

أجل. فبكت بثينة وقالت: لكننا والله ما تباعدنا منك ولا زادتنا الليالي إلا شوقاً إليك وتجديداً لمودتك وتحدثنا بقية يومهما، وسألته أن ينشدها بعض ما أحدث من شعره فقال:

ألا هل إلى الإمامة أن أُلِمَّها بثينة يوماً في الحياة سبيلُ
فإن هي قالت: لا سبيل فقل لها: عناءً علي العذرى منك طويلُ
على حين يسلو الناس عن طلب الصِّبا وينسى أتباع الوصل منه خليلُ
فبكت وجزعت، ثم قالت له: إني أعجب مما تتمناه في قولك،

ألا ليتني أعمى أصمُّ تقودني بثينة لا يخفى علي كلامها
ويحك! ما حملك على هذه الأمنية، أو ليس في سعة العافية ما يكفيني. وأمسى
المساء فتركها وانصرف.

ليلة مع بثينة

رصد جميل بثينة ذات ليلة، حتى إذا صادف منها خلوة تنكر ودنا منها،
وذلك في ليلة ظلماء ذات غيم ورعد وريح، فحذفها بحصاة فأصابته بعض
صواحبها ففزعت وقالت: والله ما حذفني في هذا الوقت بحصاة إلا الجن فقالت
لها بثينة وقد فطنت: إن جيلاً فعل ذلك، فانصرفي يا أختي إلى خباتك حتى ننام،
فانصرفت، وبقيت مع بثينة العجوز أم منظور وابنة خالتها أم الجسير. فقامت
معهما إلى جميل، فأدخلته الحباء، وكان زوجها غائبا، فدخل وهو ينشد:

لها في سواد القلب بالحُب مِيعَةٌ هي الموتُ أو كادت على الموت تُشرفُ
وما ذكرتُك النفسُ يا بَثْنُ مرةً من الدهرِ إلا كادت النفسُ تتلفُ
ولا اعترتني زفرةٌ واستكانةٌ وجاد لها سَجَلٌ من الدمع يلدرفُ
وما استطرفتُ نفسي حديثاً لخلَّةٍ أُسرُّ به إلا حديثُكِ أطرفُ

وتحدثا طويلا حتى أخذهما النوم.

وجاء غلام زوجها بصبح من اللبن، فرآها نائمة وبالقرب منها جميل، فمضى لوجهه يخبر أهلها ولقيته أختها ليلي والصبح معه، وقد عرفت خبر جميل وبثينة، فاستوقفته كأنها تسأله عن حاله وبعثت بجارية لها، وقالت احذري جيلا وبثينة، فجاءت الجارية فبهتتهما، فلما تبينت بثينة الصبح قد أضاء والناس منتشرين ارتاعت، وقالت: يا جميل نفسك نفسك قد جاء غلام زوجي بصبح من اللبن فرآنا نائمين. فقام وودعها وهو يبكي قائلا:

ألا أيُّها البيتُ الذي حيلَ دونهُ	بنا أنت من بيتٍ وأهلك من أهلٍ
ثلاثةَ آياتٍ فيتَّ أحبهُ	وبيتانَ ليسا من هوائٍ ولا شكلي
كلانا بكى أو كاد يبكي صباةً	إلى إلفه واستعجلتْ عبرةً قبلي
خليليَّ فيما عِشْتُما هل رأيتُما	قتيلا بكى من حبٍّ قاتله قبلي

أهل بثينة يطاردونه

وذكر رجل من بنى عذرة أنه كان جالسا يوما مع جميل وهما يتحدثان وإذا وجهه يكفه، فأنكره ورأى منه غير ما كان يرى، ووثب جميل نافرا مشعث الشعر متغير اللون، فأتى بناقة له قوية موثقة الخلق، فشدَّ عليها رحله، ثم أتى بقدح فيه لبن فشربه وجاء الرجل بقدح آخر، ثم قال له: اشدد جملك واتبعني فإني ذاهب إلى بعض مذاهبي، ففعل ما طلبه إليه. فسارا حتى انتهيا إلى منازل قوم، لم يجدا بها أحدا من الرجال، إذ كانوا في نجعة، وقد خلفوا النساء وراءهم، فمال جميل إليهن، فلما رأينه عرفنه، وكانت فيهن صاحبة بثينة. وبينما هو يتحدثن إذا الرجال قد أقبلوا، فقلن له: ويحك: انج بنفسك وبصاحبك، فلم يلتفت إلى ما قلن. وغشيه رجال الحى فجعلوا يرمونه ويطردونه. فأنصرف بصاحبه ومضى به حتى رجع إلى أهله.

وعد لا يتحقق

وزار جميل بثينة ذات يوم فنزل قريبا من ماء عسبرتها (البئر التى يشربون منها) يقرصد جارية لها فلم يكن نزوله بعيدا من ورود جارية حبشية لها، ومعها قرية، وكانت به عارفة وما بينه وبين بثينة. فسلمت عليه وجلست معه، وجعل يحدثها ويسألها عن أخبار بثينة ويحدثها بخبره بعدها، ويحملها رسائله. ثم أعطاها خاتمه وسألها أن تدفعه إلى بثينة وتأخذ موعدا عليها، فوعده بتحقيق ذلك. وانصرفت إلى أهلها وقد أبطأت عليهم. فلقبها أبو بثينة وزوجها وأخوها، فسألوها عما أبطأ بها، فالتوت عليهم ولم تخبرهم وتعللت، فضربوها ضربا مبرحا، فأعلمتهم حالها مع جميل ودفعت إليهم خاتمه.

ومر بهم فى تلك الحال فتیان من بنى عذرة فسمعا القصة كلها وعرفا الموضوع الذى فيه جميل، فأحبا أن يبطا عنه أهل بثينة، فقالا لهم: إنكم إن لقيتم جميلا وليست بثينة معه ثم قتلتموه لزمكم فى ذلك كل مكروه، وأهل جميل شجعان أشداء، لا يتركون ثأرهم، فدعوا الجارية توصل خاتمه إلى بثينة. فإذا زارها صنعتهم ما شئتم، قالوا: صدقتما إن هذا هو رأى. فدفعوا الخاتم إلى الجارية وأمروها بإيصاله وحذروها أن تخبر بثينة بأنهم علموا القصة، ففعلت، ولم تعلم بثينة بما جرى. ومضى الفتیان فأندرا جميلا، فقال: والله ما أربهم وإن فى كنانتي ثلاثين سهما، والله لا يخطئ كل واحد منها رجلا منهم، وهذا سيفى والله ما أنا رعرش اليد ولا جبان الجنان. فناشده الله وقال: البقية أصلح، فتقيم عندنا فى بيوتنا حتى ينتهى طلبهم لك، ثم نبعث إليها فتزورك وتنصرف سليما غير معيب. فقال: أما الآن فابعتا إليها من يندرها، فأتياه بجارية هما وقال له: قل ما حاجتك؟ فقال: ادخلى إليها وقولى لها: إنى أردت اقتناص ظبى فحذره ذلك جماعة، وقالوا له: إياك، ففاتتى الليلة.

فمضت الجارية فأعلمت بثينة ما قال لها جميل، فعرفت قصته، وسألت أهلها

فعرفوا الخبر، فلم تخرج لزيارته تلك الليلة ورصدوها فلم تبرح مكانها، ومضوا يقتصون أثره، فلم يجدوه، فعرفوا أنه قد فاتهم. وظل جميل عند صاحبيه أياما ينتظر لقاء بثينة، فلم يتحقق له ما شاء، ولا استطاع صاحباه أن يسعفاه، فتركهما ومضى على وجهه وهو ينشد:

أَلَا مِنْ لِقَائِهِ لَا يَمَلُّ قِيْدَهُ	أَفَقُّ فَالْتَعَزَّى عَنْ بَثِينَةَ أَجْمَلُ
وَأَنَّ النَّاسَ أَحْبَبْتُ قَدْ جِيلَ دُونَهَا	فَكُنْ حَازِمًا، وَالْحَازِمُ الْمُتَحَوِّلُ
سَلَا كُلُّ ذِي وَدٍّ عَلِمْتُ مَكَانَهُ	وَأَنْتَ بِهَا حَتَّى الْمَمَاتِ مُوَكَّلُ
فِي قَلْبِ دَعْوَى ذِكْرِي بَثِينَةَ إِنَّهَا	وَأَنْ كُنْتُ تَهْوَاهَا تَضُنُّ وَتَبْخُلُ
وَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ أَهْيَمَ بِذِكْرِهَا	وَيَحْطَى بِجُنْدِهَا سِوَايَ وَيَجْدُلُ
وَأَخَّرَ عَهْدِي مِنْ بَثِينَةَ نَظَرَةً	عَلَى مَوْقِفٍ كَادَتْ مِنَ الْبَيْنِ تَقْتُلُ
وَأِنِّي لِأَسْتَبْكِي إِذَا ذُكِرَ الْهُوَى	إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنْ هَوَاكَ لِأَوْجَلُ
إِذَا مَا كَرَرْتُ الطَّرْفَ لِحُوكِ رَدِّهِ	مِنْ الْبَعْدِ قِيَاضٌ مِنَ الدَّمْعِ يَهْمِلُ

مساعدة ولقاء

شكا زوج بثينة إلى أبيها وأخيها الإمام جميل بيتها وبها، فوجهوا إلى جميل وأعلموا إليه وشكوه إلى عشيرته وتوعده، وأتى جميل أهله فلاموه وعنفوه وقالوا له: إنا نستحلف إليهم وننبرأ منك ومن جريرتك (جنائتك)، فأقام مدة لا يلم بها. ثم لقي ابني عمه: روقا ومسعودا فشكا إليهما ما به، وأنشدهما قوله:

زورا بثينةً والحبيب مزورُ	إن الزيارةً للحبيب يسيرُ
إني عشيةً رحمتُ وهي حزينةُ	تشكو إلى صبايةً لصبورُ
وتقول بتّ عندي فديتُك ليلةُ	أشكو إليك فإن ذاك يسيرُ
غراءً ميسامَ كانَ حديثُها	دُرٌّ تحلُرُ نَظْمُهُ منشورُ

لا مثلها حُسْنٌ ولا كدلاها دَلٌّ ولا كوقارها توقيرٌ
ولن جَزَيْتِ اللودَ منى مثله إني بذلك يا بُثَيْنِ جديرٌ

فقال له روق: إنك لعاجز ضعيف فى حبك هذه المرأة وتركك الاستبدال بها مع كثرة النساء ووجود من هو أجهل منها، وإنك بين ذل لا أحبه لك أو كمد يؤدبك إلى التلف أو مخاطرة بنفسك لقومها إن تعرضت لها بعد إعدارهم إليك، وإن صرفت نفسك عنها وغلبت هواك فيها وتجرعت مرارة الحزم حتى تألفها وتبصر نفسك عليها طائعة أو كارهة ألفت ذلك وسلوت، فبكى وأنشد:

لقد لامنى فيها أخٌ ذو قرابةٍ حبيبٌ إليه فى ملامته رُشدى
وقال أفقٌ حتى متى أنت هائمٌ بيثنةٍ فيها قد تعيد وقد بُئدى
وإن يك رُشداً حُبها أو غوايةً فقد جنته ما كان منى على عَمْدِ
لقد لجَّ ميثاقٌ من الله بيننا وليس لمن لم يوف الله من عهدِ
أفى الناس أمثالى أحبوا فحبهم كحبي أم أحبت من بينهم وحدى
وهل هكذا يلقي المحبون مثل ما لقيت بها أم لم يجد أحداً وجدى
إذا ما دنت زدت اشتياقاً وإن نأت جزعتُ لنأى الدار منها وللبعدِ
وكلُّ محبٍّ لم يزد فوق جُهدِه وقد زدتها فى الحب منى على الجهدِ

ثم التفت إلى ابن عمه وقال له: يا أخى لو ملكت اختياري لكان ما قلت صواباً، ولكنى لا أملك الاختيار وما أنا إلا كالأسير لا يملك لنفسه نفعاً، ولقد جئتكم لأمر أسألك أن لا تكثُر ما رجوته عندك فيه بلوم وأن تحمل على نفسك فى مساعدتى، فقال له: فإن كنت لابد مهلكا نفسك فاعمل على زيارتها ليلاً فإنها تخرج مع بنات عمها إلى ملعب هن، فأجى معك حينئذ سرا، ولى صديق من عشيرة بثينة ناوى عنده نهاراً وأسأله مساعدتك على هذا، فتيقيم عنده أياماً نهاراً وتجتمع معها بالليل، فشكره.

ومضى روق إلى الرجل الذى من رهط بثينة فأخبره الخبر، واستعده كتمانها، وسأله مساعدته فيه، فقال له: لقد جئتنى بإحدى العظامم ويحك ! إن فى هذا معاداتى الحىّ جميعا إن فطن أحد به. فقال روق: أنا أتحوز فى أمره من أن يظهر. فوعده بذلك. ومضى روق إلى جميل فأخبره بالقصة ، فأثيا الرجل فأقاما عنده، وأرسل إلى بثينة بجارية له بخاتم جميل، فدفعته إليها. فلما رأته عرفته. وتبعتهما فجاءته، فتحدثا ليلتهما ، وكذلك فى ليلتين ثانية وثالثة. ثم ودعها وقال لها: عن غير بغض والله ولا ملل كان وداعى إياك . وشكر لمضيفه وانصرف مع ابن عمه.

فى زى راع

جاء جميل إلى بثينة وقد اتخذ ثياب راع من رعاة الحىّ، فلم يعرفه أحد، ووجد عند زوجها ضيفانا له، فانتبه ناحية، وسألته جارية من أنت؟ فقال: مسكين. وجلس وحده، وطعم الضيفان طعام العشاء وتعشى وحده.

وبينما بثينة جالسة مع جواربها على صلاء النار وقد اضطجع الضيفان، وهم منتحون فى جانب من البيت، فقال جميل:

هل البائسُ المقرور دانٍ فمُصْطَلٍ من النار أو مُعْطَى خافاً فلابسُ

فقالت بثينة لجارتها: صوت جميل والله اذهبي فانظري. فرجعت إليها فقالت: هو والله جميل، قد جاء فى ثياب راع. فشبهت بثينة شهقة سمعها القوم فأقبلوا يهرعون إليها، وقالوا لها ما لك: فطرحت ثوبا من حرير فى النار وقالت: احترق ثوبى. فرجع القوم وأرسلت جارتها إلى جميل، فتواعدا، وخرجت له، وبث كل منهما صاحبه وجده. وما زالا حتى برق الصباح فودعها وهو يبكى أحراً بكاء. ويقول:

ألا أيُّها الحبُّ المبرِّحُ هل ترى أخا كَلَفٍ يُغْرِى بِحُبِّ كَمَا أُغْرِى
هى البدر حسنا والنساء كواكبٌ وشتان ما بين الكواكب والبدرِ

أبو جميل ينصحه

شكا زوج بثينة وأهلها جميلا إلى الوالى فأباح لهم قتله إن وجدوه مع بثينة، فأعدروا إلى أهله مرارا وهو لا يرعوى ولا يزدجر عن الإلام بدار صاحبتة. ولما أعياهم أمره توجهوا إلى أبيه فناشدوه الله والرحم، وسألوه كف ابنه عما يتعرض له ويفضحهم به فى بثينة، فوعدهم كفه ومنعه ما استطاع، ثم انصرفوا. فدعا به، فقال له: يا بنى حتى متى أنت فى ضلالك، لا تأنف من أن تتعلق بذات بعل تغرك بخداعها وتريك الصفاء والمودة وهى مضمرة لبعليها ما تضره الحرة لمن ملكها، فقوها لك إنما هو تعليل وغرور. إن هذا لذل لك وضميم. وما أعرف أخيب حظا ولا أضيع عمرا منك، فأنشدك الله إلا كففت وتاملت أمرك، وإنك تعلم أن ما قلته حق، ولو كان لك سبيل إليها لبدلت ما أملكه فيها، ولكن هذا أمر قد فات واستبد به بمن قُدر له، وفى النساء عوض. فقال له جميل: الراى ما رأيت والقول كما قلت، فهل رأيت قبلى أحدا قدر أن يدفع عن قلبه هواه أو ملك أن يسلى نفسه أو استطاع أن يدفع ما قضى عليه، والله لو قدرت أن أمحو ذكرها من قلبى أو أزيل شخصها عن عينى لفعلت، ولكن لا سبيل إلى ذلك، وإنما هو بلاء بليت به لقضاء قُدر لى. وأنا سأمتنع من طروق هذا الخي والإلام بهم ولو مت كمدا، وهذا جهدى ومبلغ ما أقدر عليه. وقام وهو يبكى فبكى أبوه ومن حضر جزعا لما رأوا منه.

جميل يحاول السلوان

لما خاف جميل على نفسه من قوم بثينة ونصحه أبوه ووعدته أن يمتنع من الإلام بحبها فكر ماذا يصنع، وهذه تفكيره أن يرحل إلى الشام ويمدح خلفاء بنى

أمية، فيصلوه، ولعله ينسى صاحبه. ومدحهم ونال جوائزهم وظلت ذكرى
بثينة لا تفارقه، وطالما أنشد:

منع النومَ شدةُ الإشتياقِ واذكّارُ الحبيبِ يومَ الفراقِ
ولقد قلتُ يومَ نادى المنادى مستحثاً برحلةٍ وانطلاقِ
ليت لي اليومَ يا بثينةُ منكم مجلساً للوداعِ قبل الفراقِ

وعاد أحراجه إلى قومه. وبلغ بثينة أنه عاد، فراسلته مع بعض نساء الحى
تذكر شوقها إليه ووجدتها به، وواعدته لموضع يلتقيان فيه، فسار إليها وحدتها
طويلاً. وعرف أهلها أنها لقيته، فرصدوها وشددوا عليها حتى لا تغافلهم وتلقاه.

حيلة فى اللقاء

انقطع التلاقى بين جميل وبثينة مدة، فركب بعيره، وخرج إلى الصحراء يروح
عن نفسه، فلقى رجلاً من بنى حنظلة فقال له: ممن أنت يا عبد الله، فقال: رجل
من بنى حنظلة، فقال: انتسب، فانتسب له. فقال له: هل لك فى خير تصبطعه
إلى، فوالله لو أعطيتنى كل ما ترعى من إبلك ما كنت بأشكر منى لك عليه،
فقال الرجل: نعم ومن أنت أولاً؟ فقال له: لا تسألنى من أنا، ولا أخبرك، غير
أنى رجل بينى وبين هذه العشيرة التى تنزل وراء هذا السفح القريب الذى تراه
ما يكون بين بنى العم من بعض الموجدة فإن رأيت أن تأتيهم فإنك تجدهم فى
مجلسهم فتنادى وتساءلهم ناقة بيضاء غفلاً من العلامات، فإن ذكروا لك شيئاً
فذاك، وإلا فاستأذنهم فى المرور بخيام الحى فإن المرأة والصبي قد يريان ما لا
يرى الرجال، فتساءلهم، ولا تدع أحداً تصيبه عينك ولا خيمة من خيامهم إلا
طلبتها فيه.

فأتى الرجل القوم، فإذا هم مجتمعون على بعير ذبحوه، يقتسمونه، فسلم
وانتسب لهم ونشدهم (سأهم) ضالته، فلم يذكروا له شيئاً ولا أنهم رأوها،

فاستأذنهم فى الخيام، وقال إن الصبى والمرأة يريان ما لا يرى الرجال، فأذنوا له، فأتى أقصاها خيمة، واستقراها خباء خباء، ينشد الناقة، فلا يجيبه أحد، حتى إذا انتصف النهار وآذاه حر الشمس وعطش وذهب لينصرف حانت منه التفاتة، فإذا بثلاثة خيام، فقال فى نفسه: ما عند هؤلاء إلا ما عند غيرهم، ثم رجع فقال: سوءة! وثق بى رجل وزعم أن حاجته تعدل مالى، ثم آتبه فأقول: عجزت عن ثلاثة خيام. فانصرف عامدا إلى أعظمها خيمة، فسلم وسمع من يرد عليه السلام، وذكر ضالته، فخرجت إليه امرأة، وقالت له: يا عبد الله قد أصبت ضالتك، وما أظنك إلا قد اشتد عليك الحر واشتهت الشراب، فقال: أجل، فدخلت، فأتته بصحفة مفضضة، فيها تمر، وقدر مفضض فيه لبن، وقالت له: دونك، فتجمع وشرب من اللبن حتى روى، فقال لها: يا أمة الله، والله ما أتيت اليوم أكرم منك ولا أحق بالفضل، فهل ذكرت من ضالتي شيئا، فقالت: هل ترى هذه الشجرة فوق التل؟ فقال: نعم، قالت: فإن الشمس غربت أمس وهى تطيف حولها، ثم حال الليل بيني وبينها فلم أعرف عنها شيئا.

فقام الرجل وجزاها الخير وقال: والله لقد تغذيت ورويت، فخرج حتى أتى الشجرة، فأطاف بها، فلم ير للناقة من أثر، فأتى صاحبه، فإذا هو متلفع بكسائه فى الإبل يغنى ببعض الشعر، فقال له: السلام عليك، قال: وعليك السلام، ما وراءك؟ فقال الرجل: ما ورائى من شئ، قال لا عليك، فأخبرنى بما فعلت، فقص عليه القصة، حتى انتهى إلى ذكر المرأة وأخبره بالذى صنعت معه، فقال: قد أصبت ما كنت تطلب، فعجب الرجل من قوله، ثم سأله جميل عن صفة الإناءين: الصحفة والقدر، فوصفهما له، فتنفس الصعداء وقال: قد أصبت ما كنت تطلب ويحك. ثم ذكر له الرجل الشجرة وأنها رأت الناقة تطيف بها، فقال له: حسبك.

وأمسى مع الرجل حتى أوت إبله إلى مباركها، وما زال معه حتى ظن أنه

نام، فقام إلى حقيبة له، فاستخرج منها ثوبين فلبس أحدهما وتردّى بالآخر، ثم انطلق عامدا نحو الشجرة. وقام الرجل من خلفه، فسار وراءه متخفيا حتى انتهى إلى شجرات قريبة من تلك الشجرة، فاستتر بهن. ونظر فإذا صاحبة رفيقه عند الشجرة تنتظره، وقد جلست وجلس جميل منها غير بعيد، وكان الرجل يبحث يسمعهما. وكان أول ما طرق سمعه سلام جميل عليها وسؤاله عن حالها، سؤالا كريما بعيدا من كل ريبة، وسألته مثل سؤاله. ثم أمرت جارية معها، فقربت إليه طعاما، فلما أكل وفرغ قالت له: أنشدني ما قلت في غربتك، فأنشدها:

ألا ليت ريعانَ الشباب جديداً	ودهرا تولى يا بُثَيْنَ يعودُ
فثَغْنِي كما كنا نكونُ وأنتمُ	قريبٌ وما قد تبدّلين زهيد
ألا ليت شعري هل أبينُ ليلةً	بوادى القَرَى إلىّ إذن لسعيد
وهل ألقينَ فرداً بثينة مرةً	تجود لنا من ودّها ونجود
فقد تلتقى الأشتات بعد تفرّق	وقد تُترك الحاجاتُ وهي بعيد
علقتُ الهوى منها وليداً فلم يَزَلْ	إلى اليوم يَنمى حُبّها ويزيد
وأفيت عمري في انتظارِ نواها	وأبليتُ فيها الدهر وهو جديد
إذا قلت ما بى يا بثينة قاتلى	من الحب قالت ثابتٌ ويزيدُ
وإن قلت رُدّي بعض عقلى أعشْ به	مع الناس قالت ذاك منك بعيدُ
فلا أنا مردودٌ بما جئتُ طالباً	ولا حُبّها فيما يبيدُ يبيدُ
وقلت لها: بيني وبينك فاعلمي	من الله ميثاقٌ له وعهود
وقد كان حبيكم طريفاً وتالداً	وما الحبُّ إلا طارفٌ وتليدُ
يموت الهوى متى إذا ما لقيتها	ويَحْيَا إذا فارقتها فيعود

فقالت له: أحسنت ولا فُضُّ فوك. ولم يزالا يتحدثان ما يقولان هُجْراً ولا سوءا إلى الصباح، فودع كل منهما صاحبه أحسن وداع ثم انصرفا، فقام الرجل فمضى إلى إبله، واضطجع نائما، فجاء جميل، فقال له: حتى متى تنام، فقام

الرجل وتوضاً وصلى وحلب إبله وأعانه جميل، وما لبث أن حدثه حديثه وانتسب له، فعرف أنه جميل وأن المرأة بشينة، وقال له: إني قلت أبياتا في منصرفى من عندها، فهل لك أن تذهب إليها وتنشدها؟ وقال الرجل نعم، فأنشده:

ألا ياليت شعرى هل أبيتُ ليلةً كليّلتنا حتى نرى ساطع الفجر
ولو سألتُ منى حياتى بدلتُها وجُدْتُ بها لو كان ذلك من أمرى

ثم ودعه وانصرف. فذهب الرجل إلى خباء ليلى وسلم فبرزت له، فأنشدها البيتان فدمعت عيناها، ودعته فأكرمته.

الوداع الأخير

أقام جميل مدة طويلة لا يستطيع الإلمام بدار بشينة ولا لقاءها، وكان قد أضناه الجوى وأسقمه، فعزم على المضى إلى بلد ناء بعيد، لعله يتعزى عنها أو يسلوها. وكان الناس يكتثرون من الحديث عن عبد العزيز بن مروان وإلى مصر وكرمه وكثرة بذله وعطائه للشعراء، فعزم جميل على الرحيل إليه، ولكنه فكر فى بشينة وفى هذا الفراق الطويل، فمضى قاصداً إلى حبيها غير آبه بما قد يلقى من مكروه، وكانت جالسة أمام خيائها مع بعض صواحبها، وإذا برجل قد أقبل عليها، فسلم، وردت السلام وتأملمته، فإذا هو جميل، فقالت دهشة: أجميل؟ فقال: نعم، فقالت: فيم جئت؟ قال: جئت أحدث عهداً بك وإلى راحل إلى مصر، وتحدثاً ساعة، ثم ودعها وهو يبكى منشداً:

أرى كل معشوقين غيرى وغيرها يلدان فى الدنيا ويغبتان
أصلى فأبكى فى الصلاة لذكرها لى الويلُ مما يكتب الملكان
ضممتُ لها أن لا أهيّمَ بغيرها وقد وثقتُ منى بغير ضمان
ألا يا عبادَ الله قوموا لتسمعوا شكاية معشوقين يشتكيان
يعيشان فى الدنيا غريبين أينما أقاما وفى الأعوام يلتقيان

طائف

انتجع حتى بثينة موضعا في البادية، وبينما هي في هودج تسير ليلا، إذا بهاتف ينشد قول جميل:

رحل الخليطُ جِمالهم بسوادٍ وحَدَا على أثرِ البخيلةِ حادى
ما إن شعرتُ ولا علمتُ بيّتهم حتى سمعتُ به الغرابَ ينادى

فلم تتمالك أن رمت بنفسها وأهلها ينظرون، وبقيت تطلب المنشد فلا تقف عليه، فنادت: أيها الهاتف بشعر جميل ما وراءك منه؟ فلم يجيبها مجيب، فنادت ثلاثا وفي كل ذلك لا يرد عليها أحد شيئا، فقال لها صواحبها: أصابك يا بثينة طائف من الجن، فقالت: كلا لقد سمعت قائلا يقول، وأنشدت البيتين، قلن لها: نحن معك ولم نسمع شيئا. فرجعت وركبت مطيتها وهي حيرى واهية العقل كاسفة البال، ثم سارت القافلة. فلما كان في الليل إذا ذلك الهاتف يهتف بقول جميل:

أبى القلبُ إلا حبًّا بثْنَةً لم يُرِدْ سِوَاهَا وحبُّ القلبِ بثْنَةً لا يُجْدَى
إذا ما دنتُ زدت اشتياقا وإن نأت جزعت لنأى الدارِ منها وللبعد

فرمت بنفسها وسعت إلى الصوت، فلما قربت منه انقطع، فقالت: أيها الهاتف ارحم حيرتى وسكن عبرتى وأخبرنى عن جميل، فلم يرد عليها شيئا. فرجعت إلى رحلها وركبت، وسارت وهي ذاهبة العقل، وفي كل ذلك لا يجبرها صواحبها أنهن سمعن شيئا. فلما كانت الليلة الثالثة نزل أهلها في موضع وأخذ الحى مضاجعهم ونامت كل عين، فإذا الهاتف يهتف بقول جميل:

لقد فرح الواشون أن قَطَعَتْ حَبْلَى بثْنَةً أو أبدت لنا جانبَ البُحْلِ
يقولون: مهلا يا جميل وإننى لأقسم ما بى عن بثينة من مَهْلٍ

فأقبلت نحو الصوت، فلما قربت منه لم تجد أحدا، فعادت وهي تبكى وتقول: تالله إن لجميل نبأ، فقال لها صواحبها: ما هذا يا بثينة؟ وما أصابك؟ إنها

هو اجس مرت ببالك وخیالك فحففى عن نفسك ولا تظنى إلا خيرا.

وفاة جميل

لقى عبد العزيز بن مروان والى مصر جميلا لقاء كريما، ولكن القدر كان له بالمرصاد، فلم يلبث أن مرض مرضا قضى فيه نجه. ولما ثقل عليه المرض عاده رجل من عشيرته، فلما دخل عليه نظر إليه وقال: يا ابن سعد ما تقول فى رجل لم يشرب خرا قط ولم يات محرما قط يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله منذ خمسين سنة؟ فقال: من الرجل؟ إني أظن والله أنه ناج لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنْ تَتَّبِعُوا كِبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نَكُفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مَدْخَلًا كَرِيمًا﴾، قال جميل: أنا هو هذا الرجل، فقال له صاحبه: أتزعم ذلك وأنت تشب ببنينة منذ عشرين سنة، فقال: أنا فى آخر يوم من أيام الدنيا وأول يوم من أيام الآخرة فلا نالتى شفاعة محمد إن كنت وضعت يدى عليها لرؤية قط وإن كان أكثر ما كان منى إليها أنى كنت آخذ يدها أضعها على قلبى فأستريح إليها. ثم أغمى على جميل، وأفاق، فأقبل على صاحبه، فقال له: هل لك فى أن أعطيك كل ما أخلفه على أن تفعل شيئا أعهده إليك. فقال ابن سعد: حبا وكرامة، قال: إذا أنا مت فخذ ثوبى هذا فاعزله جانباً، وكل شئ سواه لك، وارحل إلى رهط بنينة، فإذا صرت بمنزلهم، فاركب ناقتى هذه، ثم البس ثوبى ذاك، واشققه عليك، وصح بهذه الأبيات:

صرخ النعى وما كنّى، بجميل	وثوى بمصر ثواء غير قُقول
صرخ النعى بفارس ذى همّة	حلوا الشمائل للرجال قُقول
قومي بنينة فاندبى بعويل	وابكى خليلك دون كل خليل

وأغمى على جميل فمات. فواراه صاحبه الزاب، ثم ركب ناقه، وسار بها حتى نزل فى رهط بنينة، فشق ثوبه الذى عينه له، وصاح بالأبيات. وسمعه

بثينة، فصرخت صرخة تنبه عليها الحيّ، وسقطت لوجهها مغشيا عليها، واجتمع عليها الرجال والنساء يسألونها: ما خبر؟ فأنشدتهن أبيات جميل، ورفعت صوتها بالعويل والبكاء، وأقام النساء معها ثلاثة أيام، وهي تبكي جيلا وتندبه، وتحزن الرجال ويكوه وقالوا: يرحمه الله فإنه كان عفيفا صدوقا. ولما انتهت الأيام الثلاثة حلفت بثينة أن لا تكتحل بعده ولا تضع مشطا في رأسها ولا حلية ولا تفرق شعرها ولا تدهنه بطيب ولا تلبس قناعا مصبوغا ولا ثوبا منقوشا. وبقيت تبكيه وتقول:

وإن سلوى عن جميل لساعةً من الدهر ما حانت ولا حان حينها
سواءً علينا يا جميل بن معمرٍ -إذا مُتْ- بأساء الحياة ولينها

وما زالت تردد هذين البيتين، حتى قضى عليها اليأس والحزن، فلهقت به.



قيس بن ذريح ولبنى

أول الهوى بين قيس ولبنى

كان قيس بن ذريح من قبيلة كنانة، وكانت عشيرته تنزل في ضواحي المدينة، واشتهر بأنه رضيع الحسين بن علي بن أبي طالب، إذ أرضعته أمه في أثناء رضاعها له. وأول ما كان من حبه لبنى أنه مر يوماً في بعض حاجته بخيام قبيلة كعب بن خزاعة، وكان الرجال غائبين عن الحى فوقف على خيمة لبنى بنت الحباب الكعبية، فاستسقى ماء، فسقته، وخرجت إليه به، وكانت فتاة مديدة القامة حلوة المنظر والكلام، فلما رآها وقعت في نفسه. وشرب الماء، فقالت له: أتزل عندنا؟ قال: نعم، فنزل بهم، وجاء أبوها، فذبح له شاة وأكرمه.

وانصرف قيس وفي قلبه من لبنى حر لا يطفأ، فجعل ينطق بالشعر فيها حتى شاع وذاع بين الناس ثم أتاها يوماً آخر وقد اشتد وجده بها، فسلم، فظهرت له، وردت سلامه، وتحقت به، فشكا إليها ما يجد بها وما يلقي من حبه وشكت إليه مثل ذلك، فأطالت، وعرف كل واحد منهما ما له عند صاحبه.

زواج العاشقين

ذهب قيس إلى أبيه ذريح وأعلمه حاله، وسأله أن يزوجه لبنى، فأبى عليه، وقال: يا بني، عليك بإحدى بنات عمك، فهن أحق بك. وكان ذريح كثير المال موسراً، فأحب أن لا يخرج ابنه إلى غريبة. ولما سمع قيس من أبيه ذلك ساءه ماخاطبه به. فأتى أمه فشكا ذلك إليها واستعان بها على أبيه، فلم يجد عندها ما يحب. فأتى رضيعه الحسين بن علي وابن أبي عتيق (حفيد أبي بكر الصديق)

وكان صديقه، فشكا إليهما ما به وما ردّ عليه أبواه. فقال له الحسين: أنا أكفيك، فمشى معه إلى أبي لبنى. فلما بصر به أعظمه ووثب إليه، وقال له: يا ابن رسول الله ما جاء بك؟ هلا بعثت إليّ فأتيتك، فقال: إن الذى جئت فيه يوجب قصدك، وقد جئتكم خاطبا ابنتك لقيس بن ذريح، فقال: يا ابن رسول الله، ما كنا لنعصى لك أمرا وما بنا عن قيس رغبة. ولكنى أحب أن يخطبها ذريح أبوه علينا وأن يكون ذلك عن أمره، فإننا نخاف إن لم يَسع أبوه فى هذا أن يكون عارا وسبّة علينا. فأتى الحسين ذريحا وقومه وهم مجتمعون، فقاموا إليه إعظاما له، وقالوا له مثل قول أبى لبنى. فقال الحسين للذريح: أقسمت عليك إلا خطبت لبنى لابنك قيس. فقال ذريح: السمع والطاعة لأمرك.

وخرج ذريح مع الحسين فى وجوه من قومه، حتى أتوا حىّ لبنى، فخطبها ذريح على ابنه إلى أبيها، فزوجه إياها، وزفت إليه بعد ذلك. وأقاما معا سعيدين لا ينكر أحد منهما من صاحبه شيئا.

غيرة الأم

كان قيس أبر الناس بأمه، فأهنته لبنى وعكوفه عليها عن بعض ذلك، فوجدت أمه فى نفسها وقالت لأبيه: لقد شغلته هذه المرأة عن برى. وانتظرت حتى مرض قيس مرضا شديدا، فلما برى من علته قالت لزوجها ذريح: لقد خشيت أن يموت قيس وما يترك خلفا له، وقد حُرّم الولد من هذه المرأة وأنت ذو مال فيصير مالك إلى أقربائك، فزوجه بغيرها، ففعل الله أن يرزقه ولدا، وألحت عليه فى ذلك. فأمهّل قيسا مدة حتى إذا خلا به يوما قال له: يا قيس إنك اعتللت هذه العلة، فخفت عليك، ولا ولد لك ولا لى سواك، وهذه المرأة ليست بولود، فتزوج إحدى بنات عمك، لعل الله أن يهب لك ولدا تقرّ به عينك وأعينا، فقال له قيس: لست متزوجا غيرها أبدا. فقال له أبوه: إن

فى مالى سعة ، فتزوج معها أخرى ، فقال قيس : لا أسوءها والله بشى أبدا ، فقال له أبوه : فإنى أقسم عليك إلا طلقته ، فأبى ، وقال : الموت والله أسهل على من ذلك ، ولكنى أخيرك خصلة من ثلاث خصال ، قال أبوه : وما هى؟ قال : تتزوج أنت ، فلعن الله أن يرزقك ولدا غيرى ، قال : ما عندى فضلة لذلك . قال قيس لأبيه : فدعنى أرتحل عنك بلبنى واصنع ما كنت صانعا لو مت فى على. قال أبوه : ولا هذه . قال قيس : فادع لبنى عندك وأرتحل عنك ، فالعلى أسلوها ، فإنى ما أحب بعد أن تكون نفسى طيبة أنها فى خيالى : فقال أبوه : لا أرضى إلا أن تطلقها ، وحلف لا يكته (لا يسره) سقف بيت أبدا حتى يطلق لبنى. وكان ذريح يخرج ، فيقف فى حر الشمس ، ويحى قيس فيقف إلى جانبه ، فيظله بردائه ويصلى هو بحر الشمس ، حتى يسقط الظل، فينصرف عنه ويدخل إلى لبنى فيعانقها وتعانقه ويبكى وبكى معه ، وتقول له : يا قيس لا تطع أباك ، فتهلك وأهلك معك ، فيقول : ما كنت لأطيع أحدا فىك أبدا.

طلاق لبنى

مازال أبو قيس وأمه يلحان عليه فى طلاق لبنى، حتى استجاب إليهما على كره منه، ولم يكده يصنع حتى طار عقله ولحقه مثل الجنون، وأخذ الشعر ينفجر على لسانه يعبر به عن لواعج قلبه، يتأسف ويبكى أشد بكاء، ويقول:

يقولون لُبْنَى فُتِنَتْ، كُنْتَ قَبْلَهَا	بخير فلا تَنْدَمَ عليها وطلّق
وَدَدْتُ وَبِيتِ اللَّهِ أَنَّى عَصَيْتَهُمْ	وَحُمِلْتُ فى رضوانها كلُّ مُوقٍ
وَكُلَّفْتُ خَوْضَ الْبَحْرِ وَالْبَحْرَ زَاخِرٌ	أَبَيْتُ على أَتْبَاجِ مَوْجِ مُغَرِّقٍ
كَأَنِّى أَرَى النَّاسَ الْمُحْيِينَ بَعْدَهَا	عُصَاةَ ماءِ الْحِظْلِ الْمُسْفَلِقِ
وَتُنْكِرُ عَيْنِى بَعْدَهَا كُلَّ مَنْظَرٍ	ويكره سمعى بعدها كلَّ مَنْطِقٍ

ولما علمت لبنى بخبر طلاقها من قيس أرسلت إلى أبيها فأعلمته الخبر، فأقبل بهودج على ناقه ويابل تحمل أثاثها ورأى ذلك قيس فأقبل على جارتها، فقال: ويحك ما دهاني فيكم، فقالت له: لا تسألني وسل لبنى، فذهب ليلم بجائنها فيسألها، فمنعه قومها، وأقبلت عليه امرأة من عشيرته فقالت له: ما لك تسأل كأنك جاهل أو تنجاهل، وهذه لبنى ترتحل الليلة أو غدا، فسقط مغشيا عليه لا يعقل، ثم أفاق وهو ينشد:

وإني لَمُنْ دمع عَيْنِي بِالْبُكَاءِ حِذَارَ الَّذِي قَدْ كَانَ أَوْ هُوَ كَانُ
وَقَالُوا غَدًا أَوْ بَعْدَ ذَلِكَ بَلِيلَةٍ فِرَاقُ حَبِيبٍ لَمْ يَبْنَ وَهُوَ بَائِنُ
وَمَا كُنْتُ أَخْشَى أَنْ تَكُونَ مَنِيَّتِي بِكَفِّكَ إِلَّا أَنْ مَا حَانَ حَاتِنُ

وسقط غراب قريبا منه، فجعل ينطق مرارا، فتطير منه أشد تطير، ولم يلبث أن قال:

لَقَدْ نَادَى الْغُرَابُ بَيْنَ لُبْنَى فَطَارَ الْقَلْبُ مِنْ حِذْرِ الْغُرَابِ
وَقَالَ: غَدًا تَبَاعَدُ دَارُ لُبْنَى وَتَنَاقَى بَعْدَ وَدِّ اقْتِرَابِ
فَقُلْتُ: تَعَسَتْ وَيْحَكَ مِنْ غُرَابٍ وَكَانَ الدَّهْرُ سَعِيكَ فِي اغْتِرَابِ

وأزف وقت الرحيل، ورآها وقومها يدخلونها هودجها فجعل يبكي وينشج أحرّ نشيج، ويقول:

أَلَا يَا غُرَابَ الْبَيْنِ وَيْحَكَ بُنَى بَعْلَمَكَ مِنْ لُبْنَى وَأَنْتَ خَبِيرُ
فَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَخْبِرْ بِمَا قَدْ عَلِمْتَهُ فَلَا طَرَتْ إِلَّا وَالْجَنَاحُ كَسِيرُ
وَدُرْتُ بِأَعْدَاءِ حَبِيبِكَ فِيهِمْ كَمَا قَدْ تَرَانِي بِالْحَبِيبِ أَدُورُ

ولما ارتحل قومها اتبعها مليا، ثم وقف لما يعلم من أن أباه سيمنعه من المسير معها، وأخذ ينظر إليهم ويبكي حتى غابوا عن عينه، وهو ينشد:

بانتُ ليبنى فأتت اليوم متبولٌ والرأى عندك بعد الحزم مخبولٌ
 أستودع الله لبنى إذ تفارقتى بالرغم منى وقرول الشيخ مقعولٌ
 وكر راجعا، وفي أثناء رجوعه نظر إلى أثر خف بعيرها فأكب عليه يقبله
 ورجع يقبل موضع مجلسها وأثر قدمها. فلامه أهله على ذلك وعنفوه على تقبيل
 التراب، فقال:

وما أحببتُ أرضكمُ ولكن أقبل إثرَ من وطئ الترابا
 لقد لاقيت من كلفى بلبنى بلاء ما أسيغ به الشرابا
 إذا نادى المنادى باسم لبنى غيبتُ فما أطيق له جوابا

ولما جنَّ عليه الليل وانفرد وأوى إلى مضجعه لم يأخذه القرار وجعل يتململ
 فيه تلمل الملدوغ ثم وثب حتى أتى موضع خباتها، فجعل يتمرغ فيه ويبكى
 ويقول:

بِتْ والهمُ يا لُبْنَى ضجيعى وجرت - مذ نأيت غنى - دموعى
 وتنفستُ إذ ذكرتكَ حتى زالت اليومَ عن قوادى ضلوعى
 يا لُبْنَى فدتكُ نفسى وأهلى هل لدهرٍ مضى لنا من رجوع

وأصبح فخرج متوجها نحو الطريق الذى سلكته يتنسم روائحها، فسنحت له
 ظبية فقصدها، فهربت منه، فأنشأ يقول:

ألا يا شبه لبنى لا تُراعى ولا تيممى قُللِ القلاع
 وأصبحتُ الغداة ألوم نفسى على شئ وليس بمستطاع
 وقد عشنا نلذ العيش حينا لو ان الدهر للإنسان راع
 ولكنَّ الجميع إلى افتراقٍ وأسبابُ الخوفِ لها دواع

وظل يعاتب نفسه فى طاعته أباه فى طلاق لبنى، ويقول: ما كان على لو
 اعتزلته وأقمت فى حيها أو فى بعض بوادى العرب أو عصيته فلم أطعه، هذه

جنايتي على نفسي، وها أنذا ميت فمن يرد روحي إلى. وكلما قرّع نفسه وأنبها
بلون من التقرع والتأنيب بكى أحر بكاء وألصق خده بالأرض ووضعته على
آثارها، وقال:

وكل مصيبات الزمان وجدتها سوى فرقة الأحباب هيئة الخطب

غربان النوى

ظلت لبنى حزينه على قيس بعد رحيلها، لا يهنأ لها عيش، وكانت ما تزال
تسأل عنه من يلم بدارها من عشيرته فيصفون لها تغير حاله وما عليه من الهوى
والصبا به، فكانت تستشدهم أشعاره، فينشدونها، وهي تبكى وتنوح على
مصيرها ومصيره، وأنشدت ذات يوم قوله في غراب البين:

ألا يا غرابَ البينِ قد طُرْتَ بالذى أحاذِرُ من لُبْنى فهل أنت واقعُ
قامرت غلاما لها أن لا يرى غرابَ بينٍ إلا يصيده، وهو غراب أسود صغير،
فكان ما يزال يأتيها ببعض الغربان فتساووا وتضربها، وتنشد البيت.

وأثاها غلامها يوما بأربعة غربان، فلما رأتهن بكّت وصرخت وكتفتهن
وجعلت تضربهن بالسوط، ثم أمسكت بغراب منهن، فتتفت ريشه، وهي
تصيح:

لعمرى لقد صاح الغراب بينهم فأوجع قلبي بالحديث الذى يبدى
فقلت له: أفصحت، لا طُرْتَ بعدها بریشِ فهل للقلب ويحك من ردُّ

ثم أخذت الثانى فشدت فى رجليه خيطين وباعدت بينهما، وجعلت تقول له:
أتبكى بلا دمع وتفرق بين الألاف بلا حق، فمن أحق بالقتل منك،
وأنشدت:

ظعن الذين فراقهم أتوقّع وجرى بينهم الغرابُ الأبقعُ
فزجرته أن لا يفرّخَ بيضه أبداً ويصبحَ واقعاً يتفجعُ
إن الذين نعتَ لي بفراقهم هم أسهدوا ليلى التمام فأوجعوا

ثم أخذت الثالث فتفتت ريشه، حتى كأن لم يكن عليه ريش قط، ثم ضربته حتى مات، وصاحت تنشد:

ألا يا غرابَ البين لولك شاحب وأنت بلوعات الفراق جديرُ
فبين لنا ما قلت إذ أنت واقعٌ وبين لنا ما قلت حين تطيرُ
فإن يك حقاً ما تقول فأصبحتُ همومك شتى والجناح كسيرُ
ولا زلت مكسورا عديماً لناصرٍ كما ليس لي من ظلي نصيرُ

وكسرت جناحه، وأمرت بالرابع فأخذت تضربه حتى مات وأنشدت بأعلى صوته قول قيس:

لقد نادى الغرابُ بين بُني فطار القلب من خللِ الغرابِ

فدخل أبوها فرآها على تلك الحال، فقال لها: ما دعاك إلى ما أرى؟ قالت: دعاني أن ابن عمي وحبيبي قيسا دعا عليهن بالوقوع فلم يقعن. فقال إنك وابن عمك تظلمان الغرابان، ألم تسمعي قول القائل:

نعبَ الغرابُ برؤية الأحبابِ فلذلك صرت أحبُّ كلِّ غرابِ

قالت: ليس البيت يا أبي كما أنشدته، وإنما هو

نعبَ الغرابُ بفرقة الأحبابِ فلذلك صرتُ عدوَّ كلِّ غرابِ

فأليت لا أظفر بغراب إلا قتلته. فأظهر أبوها لها الغضب، وتركها وذهب إلى أمها فشكا لها سوء فعلها وقولها وما تشعر به من حسرة ولوعة.

تأججت نيران الغرام فى نفس قيس بن ذريح وقلبه، وكأنا كان طلاقه لبني
وفراقها له الشرارة التى اندلعت منها هذه النيران، فهى لا تحبو فى فؤاده أبداً،
مهما بللتها دموعه، وقد انطلق يصيح:

أحبك أصنافاً من الحبِّ لم أجد لها مثلاً فى سائر الناس يُوصَفُ
فمنهنَّ حبٌّ للحبيب ورحمةٌ بمعرفتهٍ منه بما يتكلَّفُ
ومنهنَّ أن لا يَغْرِضَ الدهرَ ذكرُها على القلب إلا كادت النفس تتلفُ
وحبُّ بدا بالجسم واللون ظاهرٌ وحبُّ لدى نفسى من الرُّوح الطَّفُ

وظلت ذكرياته العذبة معها لا ترح ذاكرته، فهى لا تختفى من أمام ناظره،
ولا تختفى عنها الساحرتان حتى فى النوم وإنه لينشد:

والى لأهوى النِّومَ فى غير حينه لعلَّ لقاءً فى المنام يكونُ
تُحدِّثنى الأحلامُ أنى أراكُمُ فى ليلتِ أحلامِ المنام يقين
شهدتُ بأنى لم أحلُّ عن مودَّةٍ وألنى بكم لو تعلمين ضنين
وأن فؤادى لا يلى إلى هوى سواكِ وإن قالوا بلى سيلين

وظل دائم التطلع إلى أيامه الماضية معها، وكان يتحسر على ما فرط من
طلاقها وفراقها ويقول:

أبكى على لبني وأنت تركتها أبكى على لبني وأنت تركتها
كان بلاد الله ما لم تكن بها كان فيها الناس قفر بلاق
ألا إنما أبكى لما هو واقع فهل جزعى من وشك ذلك نافع
وما كلُّ ما متتكَ نفسك خالياً تُلاقى ولا كلُّ الهوى أنت تابع
نهارى نهار الواهين صباةً وليلى تنبو فيه عنى المضاجع
وقد كنت قبل اليوم خلوأً وإنما تُقسِّم بين الهالكين المصارع

خروج قيس إلى ديار لبنى

ولما أضنى الحب قيسا رق له بعض رفاقه القدماء، فواعده أن يخرجوا معه إلى ديارها لعله يحظى بلقائها، فخرج معهم، وهو ينشد:

لقد عذبتنى يا حُبُّ لُبْنَى ففَقَّ إما بموتٍ أو حياةٍ
فإن الموتَ أَرْوَحُ من حياةٍ تدوم على التباعد والشتاتِ

وما زالوا يجدُّون فى السير حتى انتهوا إلى ديارها، فأقاموا معه حتى لقيها، فلما وقعت عينه عليها خرَّ مغشيا عليه، ولما أفاق أنشأ يقول:

الله يدرى وما يدرى به أحدٌ ماذا أَجْمَعِم من ذكراكِ أحيانا
لا بارك الله فيمن كان يمسِّبكم إلّا على العهد حتى كان ما كانا
إن تُصرِّمى الحبلَ أو تُمسى مُفارقةً فالدهر يُحدث للإنسان ألوانا

ثم ودعها ومضى مع رفاقه.

لقاء ثان فى الحج

وأشار قوم على قيس بالحج لعله يسلو لبنى، فحج وانفق أن حجَّت هى الأخرى فى تلك السنة، فرآها ومعها امرأة من قومها، فدهش وبقي واقفا مكانه ومضت لسييلها، ثم أرسلت إليه بالمرأة تبلغه السلام وتسأله عن خبره، فوجدته جالسا وحده يبكى وينشد:

ويومَ مِنى أعرضتِ عنى فلم أقل بحاجة نفس عند لُبْنَى مقالها
وفى اليأس للنفس المريضة راحةً إذا النفس رَأَتْ خُطَّة لا تنالها

ودخلت المرأة خباءه وجعلت تحدّثه عن لبنى ويحدثها عن نفسه مليّاً، ولم تعلمه أن لبنى أرسلتها إليه، فسألها أن تبلغها عنه السلام، فامتعت عليه، فأنشأ يقول:

إذا طلعت شمسُ النهارِ فسَلِّمى فأَيُّ تسليمى عليكِ طلوعُها
بعشرِ تحياتٍ إذا الشمسُ أُشْرِقتْ وعشر إذا اصْفَرَّتْ وحن رجوعُها
ولو أبلغتها جارةٌ قولى اسَلِّمى بكتَ جَزَعاً وارْفَضْ منها دموعُها
وبان الذى تُخْفى من الوجد فى الحشا إذا جاءها عني حديثٌ يروغُها

وقضى الناس حجبهم وانصرفوا ولم يأته رسول منها، لأن قومها رأوه وعلموا
به، فخشيت أن ترأسله، فقال:

تُمَيِّنِي نَيْلاً وتَلَوِّينِي بِهِ فنفسى شوقاً كلَّ يوم تَقَطِّعُ
وقلبك قَطُّ ما يَلِينُ لما يَرى فواكبدى قد طال هذا التضرُّعُ
أخْبِرْتِ أُنَى فيك مَيِّتٌ حَسْرَتِي فما فاض من عينيك للوجد مَدَمَعُ
ولكن لَعَمْرِي قد بكيتكِ جاهداً وإن كان دائي كله منك أجمعُ
وما غَشِيتُ عينيكِ من ذاك عِبْرَةً وعيني على ما بى بذكراك تَدَمَعُ

وبلغتها الأبيات فجزعت جزعا شديدا وبكت بكاء كثيرا. ثم خرجت إليه
ليلا على موعد فاعتذرت، وقالت: إنما أبقى عليك وأخشى أن يقتلك قومي،
فأنا أتحاماك لذلك، ولولا هذا ما افترقنا، وودعته وانصرفت.

مرض قيس

عاد قيس إلى قومه بعد رؤيته لبني فى الحج وقد سالت نفسه حسرات،
فأنكروه وسألوه عن حاله، فلم يخبرهم ومرض مرضا شديدا أشرف منه على
الموت، فدخل إليه أبوه ورجال قومه فكلّموه وعاتبوه وناشدوه الله، فقال:
ويحكم أترؤنى أمرضت نفسى أو وجدت لها سلوة لقد اخترت الهم والبلاء
وهذا ما اختاره لى أبواى وابتليانى به.

ولما رأت أمه تماديه فى مرضه وتعلقه بلبنى أرسلت إليه بفتيات من عشيرته

يعين عنده لبني ويلمنه على جزعه وبكائه فأتينه واجتمعن حواليه، وجعلن يمازحته ويعين لبني عنده، فلما أطلن في ذلك أقبل عليهن وقال:

يَقَرُّ بعيني قُرْبُهَا وَيَزِيدُنِي بِهَا كَلْفًا مَنْ كَانَ عِنْدِي يَعْيبُهَا
وَكَمْ قَاتِلٍ قَدْ قَالَ تُبُّ فَعَصِيَّتُهُ وَتِلْكَ لَعَمْرِي تَوْبَةٌ لَا أَتُوبُهَا
فِيَا نَفْسُ صَبْرًا لَسْتُ وَاللَّهِ فَاعْلَمِي بِأَوَّلِ نَفْسٍ غَابَ عَنْهَا حَبِيبُهَا

فانصرفن عنه إلى أمه فأياسنها من سلوته.

وصنع أبوه صنيع أمه، فسأل بعض فتيات من الحبي أن يُعَدِّدَ له ويحدثه لعله يتسلى عن لبني أو يتعلق بإحداهن، ففعلن ذلك. ودخل إليه طيب ليدأويه والفتيات معه، فلما اجتمعن عنده جعلن يحادثنه وأطلن السؤال عن سبب علته فقال:

عِيْدَ قَيْسٍ مِنْ حَبِّ لُبْنَى وَلُبْنَى دَاءٌ قَيْسٍ وَالْحَبُّ دَاءٌ شَدِيدُ
وَإِذَا عَادَنِي الْعَوَائِدُ يَوْمًا قَالَتِ الْعَيْنُ لَا أَرَى مِنْ أُرِيدُ
لَيْتَ لُبْنَى تَعُودُنِي ثُمَّ أَقْضِي إِنْهَا لَا تَعُودُ فِيمَنْ يَعُودُ
وَيَبِّحُ قَيْسٍ لَقَدْ تَضَمَّنَ مِنْهَا دَاءٌ خَبِلَ فَالْقَلْبُ مِنْهُ عَمِيْدُ

فقال له الطيب: منذ كم هذه العلة؟ ومنذ كم وجدت بهذه المرأة ما وجدت، فقال وهو يكي متحسرا:

تَعْلَقُ رُوحِي رُوحَهَا قَبْلَ خَلْقِنَا وَمَنْ يَعِدُ مَا كُنَّا إِطَافًا وَفِي الْمَهْدِ
فَزَادَ كَمَا زِدْنَا فَاصْبَحْ نَامِيًّا وَلَيْسَ إِذَا مُتْنَا بُمَنْصَرَمِ الْعَهْدِ
وَلَكِنَّه بَاقٍ عَلَى كُلِّ حَادِثٍ وَزَاثِرُنَا فِي ظُلْمَةِ الْقَبْرِ وَاللَّحْدِ

فقال له الطيب: إن مما يسليك عنها أن تتذكر ما فيها من المساوي والمعايب وما تعافه النفس من بني آدم، فإن النفس تنفر حينئذ وتسلو ويخف ما بها، فقال يجيبه:

إذا عُبِّتْهَا شَبَّهْتُهَا الْبَدْرَ طَالَعَا وَحَسْبُكَ مِنْ عَيْبٍ لَهَا شَبَّهَ الْبَدْرَ
لَقَدْ فَضَّلْتُ لِبْنِي عَلَى النَّاسِ مِثْلَمَا عَلَى أَلْفِ شَهْرٍ فَضَّلْتُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ
ودخل أبوه وهو يخاطب الطبيب بهذه المخاطبة فأنبه ولامه وقال له: يا بنى،
الله الله فى نفسك، فإنك ميت إن دمت على هذا، فأنشد:

وفى عُرْوَةِ الْعُدْرَى إِنْ مِتُّ أَسُوءُ وَعَمْرُو بْنُ عَجَلَانَ الَّذِى قَتَلْتُ هُنْدُ
وَبِى مِثْلُ مَا مَاتَا بِهِ غَيْرَ أُنَى إِلَى أَجَلٍ لَمْ يَأْتِنِى وَقْتُهُ بَعْدُ
هَلْ الْحَبُّ إِلَّا عَبْرَةٌ بَعْدَ زَفْرَةٍ وَحَرٌّ عَلَى الْأَحْشَاءِ لَيْسَ لَهُ بَرْدُ
وَفِيضُ دَمَوِجٍ تَسْتَهْلُ إِذَا بَدَا لَنَا عَلَمٌ مِنْ أَرْضِكُمْ لَمْ يَكُنْ يَدُو

زواج قيس بأخرى

ولما طال على قيس مرضه أشار قومه على أبيه بأن يزوجه امرأة جميلة فلعله
يسلو بها عن لبنى فدعاه إلى ذلك فأباه وقال:

لَقَدْ خِفْتُ أَنْ لَا تَقْنَعَ النَّفْسُ بَعْدَهَا بِشَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِنْ كَانَ مَقْنَعَا
وَأَزْجُرُ عَنْهَا النَّفْسَ إِذْ حِيلَ دُونَهَا وَتَأْتَى إِلَيْهَا النَّفْسُ إِلَّا تَطْلُعَا

فأعلمهم أبوه بما رد عليه، قالوا: فأمره بالمسير فى أحياء العرب والنزول عليهم،
فلعل عينه أن تقع على فتاة تعجبه، فأقسم عليه أبوه أن يفعل، فسار حتى نزل
بجى من قبيلة فزارة، فرأى جارية حسناء قد حسرت قناع حرير عن وجهها وهى
كالبدنر ليلة تمامه، فقال لها: ما اسمك يا جارية، قالت: لبنى، فسقط على وجهه
مغشياً عليه، فنضحت على وجهه ماء وارتاعت لما عراه، ثم قالت: إن لم يكن
هذا قيس بن ذريح إنه لجنون! فأفاق، فسألته من هو فعرفها بنفسه، فقالت: لقد
علمت أنك قيس، ولكنى نشدتك بالله وبحق لبنى إلا أصبت من طعامنا،
وقدمت إليه طعاما، فأصاب منه قليلا. وركب فأتى على أثره أخ لها كان غائبا،

فرأى مناخ ناقته، فسأهم عنه، فأخبروه، فركب ناقته حتى رده إلى منزله، وحلف عليه ليقيم عنده شهرا، فقال له: لقد شققت على ولكني سأبقي هواك والفتى الفزاري يزداد عجبا بحديثه وعقله وشعره، فعرض عليه الصُّهر، فقال له: يا هذا إن فيك لرغبة، وإنني لمعجب بأختك، ولكني في شغل لا يُنتفع بي معه.

ولم يزل الفتى الفزاري يعاوده في طلب مصاهرته والحي يلومونه ويقولون له قد خشينا أن يصير علينا فعلك سُبَّةً، فقال: دعوني، ففي مثل هذا الفتى يرغب الكرام، فلم يزل به حتى أجابه وعقد الصهر بينه وبين الفتى على أخته المسما لبني، وقال له الفتى: أنا أسوق عنها صداقها (المهر) فقال قيس بن ذريح: أد والله يا أخي أكثر قومي مالا، فما حاجتك إلى تكلف هذا، أنا سائر إلى قومي وسائق إليها المهر.

وتوجه قيس إلى أهله وأعلم أباه بالذي كان منه، فسره، وساق له مهرا كبيرا فرجع إلى الفزاريين وأقام عندهم حتى أدخلت عليه زوجته. فلم يروه هشا إليها ولا دنا منها ولا خاطبها بحرف ولا نظر إليها. وأقام على ذلك أياما كثيرة. ثم أعلمهم أنه يريد الرحيل إلى قومه والبقاء عندهم أياما، فأذنوا له في ذلك.

ومضى قيس إلى المدينة وكان له صديق بها من الأنصار، فأتاه، فأعلمه الأنصاري أن خبر تزويجه بلغ لبني فغمها وقالت: إنه لغدار، ولقد كنت أمتني من إجابة قومي إلى تزويجي فأنا الآن أجيهم ما دام قد نكث الوعد ونقض العهد.

زواج لبني

كان أبو لبني شكا قيسا إلى معاوية، وقال له إنه يتعرض لابنته بعد طلاقها فكتب معاوية إلى والي المدينة - كما يقال - أن يهبط دمه إن تعرض لها أو

بها وأن يشتد في ذلك، وأمر أباهما أن يزوجها رجلاً سماه له من أهل المدينة، فوجهت لبنى رسولا إلى قيس تعلمه ما جرى وتحذره، فقال:

فإن يجبّوها أو يحلّ دون وصلها مقالة واش أو وعيد أمير
فلن يمنعوا عيني من دائم البكا ولن يذهبوا ما قد أجنّ ضميري
إلى الله أشكو ما ألقى من الهوى ومن حرق اعتادني وزفير
ومن ألم للحب في باطن الحشا وليل طويل الحزن غير قصير

وعرض أبو لبنى عليها الزواج بالرجل الذي سماه معاوية، فلم تمتنع، لما علمت من زواج قيس، فزوجه أبوها منه، وزفت عليه وكان نساء الحى يتغنين ليلة زفافها:

لُبْنَى زَوْجُهَا أَصْبَحَ لَا حُرَّ يَوازِيهِ
له فضل على الناس بما باتت تُناجيه
وقيس ميّت حيّ صريع في بواكيه
فلا يُعِده الله ويُعْدا لِنَواحيه

وسمع بذلك كله قيس فجزع جزعا شديدا، وركب من فوره حتى أتى ديار قومها، فناده النساء: ما تصنع الآن ها هنا، وقد رحلت لبنى مع زوجها، وأصبح بينكما حجاب صفيق، فبكى وأنشد:

وإن تك لُبْنَى قد أتى دون قربها حجاب منيع ما إليه سبيل
فإن نسيم الجو يجمع بيننا ونُبصر قرن الشمس حين تزول
وأرواحنا بالليل في الحى تلتقى ونعلم أنا بالنهار نقيـل
وتجمعن الأرض القارّاء وفوقنا سماء نرى فيها النجوم تجول

وجعل الفتیان يعارضونه بأن لبنى تزوجت وانتقلت مع زوجها وهو لا يحبيهم حتى أتى موضع خبائها، فنزل عن راحلته، وجعل يتمرغ فيه ويضع خده على

ترابه ويكي أحرّ بكاء، ثم قال:

إلى الله أشكو فقد بُني كما شكا إلى الله فقد الوالدين يتيم
يتيم جفاه الأقربون فجسمه نحيل وعهد الوالدين قديم
تهيطني من حبّ لبي علائق وأصناف حبّ هوّلهن عظيم
ومن يتعلّق حبّ لبي فؤاده يمتّ أو يعيش ما عاش وهو كليم

رسول من لبي

ولما سمعت لبي بما حدث من قيس بن ذريح في ديار قومها بعد زواجها أرسلت إليه رسولا وقالت له: استنشده شعره، فإن سألك عن نسبك فانتسب له في بني خزاعة، فإذا أنشدك شعرا فئ، فقل له: لم تزوجت بعدها حتى أجابت إلى أن تزوج بعدك؟ واحفظ ما يقوله لك حتى ترده عليّ. فأثاه الرسول فسلم وانتسب خزاعيا وذكر أنه من أهل الشام واستنشده، فأنشده قوله:

تكاد بلادُ الله يا أمّ معمر بما رَحِبْتُ يوماً علىّ تضيقُ
تكذبني بالودّ لُبني وليتها تُكَلِّفُ مني مثله فتدوقُ
ولّني وإن حاولت صرّمي وهجرتي عليك من أحداث الرّدَى لشقيق
ولم أرَ أياماً كآيامنا التي مرّزنا علينا والزمان أنيق
وحلّقتني يا قلبُ أنك صابرٌ عليّ البين من لُبني فسوف تدوق
فمتّ كمداً أو عيش سقيماً فإنما تكلفني ما لا أراك تطيق
وإن تك لما تسأل عنها فإنني بها مُغرّم صَبُّ الفؤاد مَشْوق
سعى الدهر والواشون بيني وبينها ففُطّع حبلُ الوصل وهو وثيق

فقال له الرجل: فلم تزوجت بعدها؟ فأخبره الخبر وحلف له أن عينه ما اكتشحت بالمرأة التي تزوجها وأنه لو رآها في نسوة ما عرفها وأنه ما ملأ يدا

إليها ولا كلمها. فقال له الرجل: فإني جار لها، وإنها من الوجد بك على حال قد تمنى زوجها معها أن تكون بقربها لتصلح حالها بك، فحملني إليها ما شئت أؤديه إليها، فقال قيس له: تعود إلى إذا أردت الرحيل، فعاد إليه لما عزم على الرحيل، فقال: تقول لها:

ألا حَيَّ لُبْنَى الْيَوْمَ إِنْ كَتَّ غَادِيَا	وَأَلِمَ بِهَا مِنْ قَبْلِ أَلَا تَلَاقِيَا
وَأَنْ أَحْيَى أَوْ أَهْلَكَ فَلَسْتُ بِزَائِلٍ	لَكُمْ حَافِظًا مَا بَلَّ رَيْقٌ لَسَانِيَا
أَصُولُكَ عَنْ بَعْضِ الْأُمُورِ مِصْنَعٌ	وَأَخْشَى عَلَيْكَ الْكَاشِحِينَ الْأَعَادِيَا
تَسَاقُطُ نَفْسِي حِينَ أَلْقَاكَ أَنْفُسًا	يَرِدْنَ فَمَا يَصْدُرْنَ إِلَّا صَوَادِيَا
وَيَنْ الْحِشَا وَالنَّخْرَ مَنِي حَرَارَةٍ	وَلَوْعَةٍ وَجَدِ تَرَكَ الْقَلْبَ سَاهِيَا
جَزَعْتُ عَلَيْهَا لَوْ أَرَى لِي مَجْزَعًا	وَأُشِيتُ دَمْعَ الْعَيْنِ لَوْ كَانَ فَايَا
تَمُرُّ اللَّيَالِي وَالشُّهُورُ وَلَا أَرَى	وَلَوْ عَيَّ بِهَا يَزْدَادُ إِلَّا تَمَادِيَا
أَلَا إِنَّهَا صَدَّتْ وَحُمِلْتُ مِنْ هَوَايَا	لَهَا مَا يُؤُودُ الشَّائِخَاتِ الرُّوَاسِيَا

لقاء على غير وعد

أخذ قيس بعض إبل له، وتوجه بها إلى المدينة لبيعها، ويقضى بثمانها بعض حوائجه، وقدم المدينة، وبينما هو يعرض إبله إذ ساومه زوج لبنى فى ناقة من نوقه وهما لا يتعارفان، فباعه إياها، فقال له إذا كان غد فأتني فى دارى، فأقبض الثمن، ووصف له داره. ومضى زوج لبنى إليها فقال لها: إنى ابتعت ناقة من رجل من أهل البادية وهو يأتينا غدا ليقبض ثمنها، فأعدنى له طعاما، ففعلت.

فلما كان من الغد جاء قيس فصوت بالخادم: قولى لسيديك: صاحب الناقة بالباب. فعرفت لبنى صوته، فلم تقل شيئا، فقال زوجها للخادم: قولى له: ادخل، فدخل، فجلس. فقالت لبنى للخادم: قولى له يا فتى ما لى أراك أشعث أغبر؟ فقالت له ذلك، فتنفس، ثم قال لها: هكذا تكون حال من فارق الأحبة

واختار الموت على الحياة وبكى. فقالت لها ابني: قولي له: حَدَّثْنَا حَدِيثَكَ. فلما ابتداء يحدث به كشفت ابني الحجاب، وقالت له: حسبك قد عرفنا حديثك.

وبهت قيس ساعة لا يتكلم، ثم انفجر باكيا ونهض فخرج، فناداه زوج ابني، ويحك ما قصتك؟ ارجع اقبض ثمن ناقتك، وإن شئت زدناك. فلم يرد عليه، وخرج فركب بعيره ومضى. وقالت ابني لزوجها: ويحك هذا قيس بن ذريح، فقال لها ما عرفته. وجعل قيس يبكي في طريقه، ويندب نفسه، وينشد:

أتبكي على لُبْنَى وأنت تركتها	وكتّ عليها بالملأ أنت أقدرُ
فإن تكن الدنيا بلُبْنَى ثقلت	على فللدنيا بطونٌ وأظهرُ
لقد كان فيها للأمانة موضعُ	وللروح مُرتادٌ وللعين منظرُ
وللحاتم العطشان رى بريقها	وللمرح المختال خمرٌ ومُسكر
كأنى فى أرجوحة بين أحبل	إذا ذُكرتْ منها على القلب تنخرُ

زوج ابني يؤنبها

اشتهر أمر قيس في المدينة وغنى في شعره المغنون من أمثال معبد ولم يبق شريف ولا وضيع إلا سمع بشعره فاطربه وحن لقيس مما به. وجاء ابني زوجها فأنبها على ذلك وعاتبها، وقال: قد فضحتني بذكرك، فغضبت، وقالت: يا هذا إني والله ما تزوجتك رغبة فيك ولا فيما عندك ولا دلس أمرى عليك أحد، ولقد علمت أنى كنت تزوجته قبلك وأنه أكره على طلاقى. والله ما قبلت التزويج إلا بعد أن أهدر السلطان دمه إن ألمّ بحينا، فخشيت أن يحمله ما يجد من حبه على المخاطرة، فيقتله أهلى، فتزوجتك. وأمرك الآن إليك، ففارقنى إن شئت. فأمسك عن جوابها ولام نفسه، وجعل يأتيا بجوارى المدينة يغنيها بشعر قيس كيما يستصلحها بذلك، فلا تزداد إلا تماديا وبعدا، ولا تزال تبكى كلما سمعت شيئا من شعره أحرَّ بكاء وأشجاء.

قيس يعود إلى المدينة

لما عاد قيس إلى قومه بعد ما كان من لقائه للبنى ، وتركه لثمن ناقته دون أن يقبضه اشتد به الحنين إليها، وعأوده المرض الذى كان ألم به، وأصبح لا يفيق من غشيانه وخفقانه، فكانت فتيات الحى يعدنه ويعذله، فيقول:

إذا أمرتني العاذلاتُ بهجرها أبتُ كَبَدٌ عما يَقُلْنَ صديقُ
وكيف أُطيع العاذلاتِ وذكرها يُورِّقُنِي والعاذلاتُ هجوُ

ولما طالت علة قال له أبوه: إنى لأعلم أن شفاءك فى القرب من لبنى فارحل إلى المدينة، فرحل إليها، وكان يعرف فيها جارية من الموالى تزوجت بسيد من سادة قريش، وكانت من أطرف النساء وأكرمهن، وكانت تسمى بركة، فأتى دار الضيافة التى لزوجها ، فوثب غلمانها إلى رحل قيس ليحطوه، فقال: لا تفعلوا فلست نازلا إلا أن ألقى السيدة بركة، فإنى قصدتها فى حاجة، فإن وجدت لها عندها موضعا نزلت وإلا رحلت، فأخبروها، فخرجت إليه ورحبت به وقالت: حاجتك مقضيه كائنه ما كانت، فانزل ، فنزل ودنا منها فقال: أنا قيس بن ذريح، قالت: حياك الله، إن ذكرك الجديد عندنا فى كل وقت، اذكر حاجتك ، قال: حاجتى أن أرى لبنى نظرة واحدة ، قالت: ذلك لك على. فنزل بهم وأقام عندها وأخفت أمره وزارت لبنى مرارا وتلطفت لها بالهدايا ، ثم قالت لزوجها: أخبرنى عنك هل أنت خير من زوجى؟ فقال: لا، قالت فلبنى خير منى؟ قال: لا، قالت: فما بالى أزورها ولا تزورنى، قال: ذلك إليها، فسألتها الزيارة وأعلمتها أن قيسا فى ضيافتها وأن كل مناه أن يراها نظرة واحدة، فأسرعت إلى ذلك وأتتها. فلما رآها ورأته بكيا حتى كادا يتلفان. ثم جعلت تسأله عن خبره وعلة فيحبرها، ويسأها فتخبره ثم قالت له: أنشدنى ما قلت فى علتك الأخيرة، فأنشدها قوله:

أعالجُ من نفسي بقايا حُشاشةٍ على رَمَقٍ والعائداتُ تعودُ
فإنْ ذُكرتُ لبني هَشِشْتُ لذكرها كما هَشَّ لِلثَنَى الدَّرور وليدُ
أجيبُ لبُني من دعائي تجلداً وبى زَفَرَاتُ تَجَلَّى وتعود
تُعِيدُ إلى رُوحى الحياة وإننى بنفسى لو عاينَتى لأجود
ألا ليت أياماً مضينَ تعود فإنْ عُذْنُ يوماً إننى لسعيدُ
كأنى من بُنى سليمٍ مُسهَّدُ يَظُلُّ على أيدي الرجال يَميدُ
فلا اليأسُ يُسَلِّبى ولا القربُ نافعى ولبنى مُنَوِّعٌ ما تكاد تجود
رَمَتْنى لُبْنى فى الفؤاد بسهمها وسهمُ لبني للفؤاد صَيود
سلا كُلُّ ذى شَجْوٍ علمتُ مكانه وقلبي للبني ما حَيَّتْ ودود
وقائلةٍ قد مات أو هو ميّت وللنفسِ منى أن تفيض رصيّدُ

وعاتبته على تزوجه، فحلف أنه لم ينظر إلى من تزوجها ملء عينيه ولا دنا منها فصدقته. ولم يزل يومه معها يحدثها، ويشكو إليها أعفً شكوى وأكرم حديث حتى أمسى. فأنصرفت ووعدته الرجوع إليه من غد فلم ترجع. وشاع خبره، فلم ترسل إليه رسولا. فكتب الأبيات التالية فى رقعة، وأرسل بها إليها:

بنفسى مَنْ قَلْبى له الدَّهْرُ ذَاكِرٌ وَمَنْ هو عَنى مُعْرِضُ القَلْبِ صَابِرُ
وَمَنْ حُبِّه يَزْدَادُ عِنْدَى جِلْدَةً وَحُبِّى لَدَيْهِ مُخْلَقُ العَهْدِ دَائِرُ

وبلغ أهل زوجته الثانية خبره وإمامه بلبنى، فكاتبوه فى ذلك وعاتبوه. فقال للرسول: قل لأخيها: ما غررت من نفسي، ولقد أعلمته أنى مشغول عن كل أحد، وقد جعلت أمر أختي إليه، فليمض فيه من حكمه ما يرى. فتكرّم الفتى عن أن يفرق بينهما، ولم تلبث أن ماتت.

لبنى تعود إلى قيس

اجتمع الحسين بن على بن أبى طالب وأخوه الحسن وابن أبى عتيق وجماعة

من قریش وتواعدوا على يوم يذهبون فيه إلى زوج لبنى، لعله يردها على قيس.
فلما رأهم أعظم مصيرهم إليه وأكبره، فقالوا: لقد جئناك بأجمعنا فى حاجة،
فقال هى مقضية كائنة ما كانت من ملك أو مال أو أهل. فقالوا: تهب لنا
زوجتك لبنى وتطلقها. قال: فإنى أشهدكم أنها طالق ثلاثا، فعوضوه منها مالا
كثيرا. ثم سأل القوم أباها فردها على قيس. وما زالت عنده حتى ماتت، وتبعها
يوم موتها يندبها ويكيها ويقول:

ماتت لبني فموتها موتى هل تنفعن حسرتي على الفوتِ
وسوف أبكى بكاء مكثبٍ قضى حياةً وجداً على ميتِ

ثم أكبَّ على القبر يبكى حتى أغشى عليه، فرفعه أهله إلى منزله وهو لا
يعقل، فلم يزل عليلا لا يفيق ولا يجيب مكلمة أيام حتى مات، فدفن
بجوارها.

عُرْوَةُ بَن حِزَام وَعَفْرَاء

بدء الحب

كان عروة بن حزام من بنى عذرة، مات أبوه وعمره أربع سنوات، فكفله عمه عقال بن مهاصر، فنشأ في حجره مع ابنته عفراء يلعبان ويكونان معاً، حتى ألفت كل منهما صاحبه ألفاً شديداً، وكان عقال يقول لعروة لما يرى من إلفه لابنته: أبشر، فإن عفراء زوجتك إن شاء الله. فكانا كذلك حتى لحقت عفراء بالنساء ولحق عروة بالرجال فأتى عمه لما يقال لها هند، وقال لها في بعض ما قال: يا عمه إنى لمكلمك وإنى لمستح منك، ولكنى لم أفعل هذا حتى ضقت ذرعاً بما أنا فيه، فاذهبى إلى عمى عقال واخطبى لى عفراء منه. فذهبت العمه إلى أخيها، فقالت له: يا أخى قد أتيتك فى حاجة أحب أن تحسن فيها الرد، فإن الله يأجرك لصلته رحك بى على ما أسألك، فقال لها: قولى فلن تسألى حاجة إلا وفيها لك. فقالت: تزوج عروة ابن أخيك بابنتك عفراء، فقال: ما بى عنه مذهب، ولا هو شخص يرغب عنه، ولا بى عنه رغبة، ولكنه ليس بذى مال، وليس هناك وجه للسرعة، فلنترك الأمر حتى يصيب بعض المال.

وكانت أم عفراء سيئة الرأى فى عروة، وكانت تريد لابنتها رجلاً موسراً ذا مال، وكان يطعمها فى أمنيته أن ابنتها على حظ وافر من الحسن والجمال. وبلغ عروة أشده، وعرف أن شاباً موسراً من ذوى قرياه يريد أن يخطبها لنفسه، فأتى عمه، وقال له: يا عم قد عرفت حقى وقرابتى وأنى ولدك وربيت فى حجرى وقد بلغنى أن شخصاً جاءك يخطب عفراء، فإن أسعفته برغبته قتلتنى، فأنشذك الله ورحمى وحقى، فرق له، وقال له: يا بنى أنت معدم وحالنا قرية من حالك، ولست مخرجها إلى سواك، إلا أن أمها تأبى أن تزوجها إلا بمهر غال

فاسع في الأرض واسترزق الله تعالى، لعلك تصيب ما تحقق به أمنيته. فجاء إلى أمها وتلطف لها فأبت أن تقيه إلا بما تريده من المهر الغالي على أن يسوق إليها هي شطرا كبيرا منه، فوعدها ذلك، وانصرف.

السفر إلى إيران

عرف عروة إنه لا تنفعه قرابة عند عمه وزوجته، وأنه لا سبيل له إلى عفراء إلا أن يحصل على مال وفير، ففكر في قصد ابن عم له ثرى كان مقيما في بلدة الرى بإيران، وعرض فكرته على عمه عقيل وزوجته، فوافقاه على عزمه، ووعداه أن لا يزوجا عفراء غيره حتى يعود. وفي ليلة رحيله صار إلى ابنة عمه، فجلس عندها ومعها فتيات من الحى، وظلوا يتحدثون، حتى جاء الصباح، فودعها وودع صواحبها، وودع الحى جميعه.

وكان له رفيقان يألفهما، فصحباه في رحلته الطويلة، وشد كل منهم على راحلته، وكان في طول سفره ساهيا يكلمانه، فلا يفهم، حتى يرد عليه القول مرارا، إذ كان فكره دائما في عفراء، وكان كثيرا ما ينشد:

تَحَمَّلْتُ من عفراء ما ليس لى به	ولا للرجال الراسيات يدان
فيا رب أنت المستعان على الذى	تَحَمَّلْتُ من عفراء منذ زمان
كان قَطَاةً عُلِّقَتْ بجناحها	على كبدى من شِدَّةِ الخفقان

وكانا يعزّيانه ويقولان له إن أمنيته منها ستحقق، فلا يكف عن ذكرها وترداد اسمها، وما أصابه من ج بها، وبراه من عشقها، ويقول:

متى تكشفنا عنى القميصَ تبيّنا	بى الضرّ من عفراء يا فتیان
إذا تريا لحماً قليلاً وأعظما	بلین وقلباً دائماً الخفقان
وقد تركتني ما أعى حدثي	حديثاً وإن ناجيته ونجاني

على كبدى من حبّ عفراء قرحةً وعينائى من وجدى بها غرقان

وما زال فى هيامه وذكره لصاحبه حتى قدم على ابن عمه، فلقيه وعرفه حاله وما قدم له، فوصله وكساه وأعطاه مائة من الإبل، فانصرف بها إلى أهله وقومه.

نقض العهد

تصادف أن رجلا من أهل الشام من بنى أمية نزل فى حى عفراء فنحر بعيرا للناس ووهب وأطعم، وكان ظاهر الثراء، وبينما هو فى بعض مجالسه، إذ رأى عفراء حاسرة عن وجهها ومعصمها تحمل إناء سمن وعليها إزار حرير أخضر، فلما رآها وقعت من قلبه بمكانة عظيمة، فسأل عنها، فعرف أنها ابنة عقال، فخطبها منه، فاعتذر إليه، وقال: لقد سبقك إليها ابن أخ لى يعدها عندى، وما لغيره إليها سبيل، فقال له: إنى أرغبك فى المهر، فقال عقال: لا حاجة لى بذلك. فعدل الأموى إلى أمها فوجد عندها قبولا، لماله وبذله وكرمه، فوعده أن تكون من نصيبه، وجاءت إلى زوجها فتلطّفت له، ثم قالت فى أثناء حديثها معه: أى خير فى عروة حتى تجس ابنتى عليه، وقد جاءها الغنى والثراء يطرقان عليها بابها، ووالله ما ندرى أعروة حى أم ميت، وهل ينقلب إلينا بمال أو لا، فتكون قد حرمت ابنتك خيرا حاضرا ورزقا سنيا. ولم تزل به حتى قال لها: إن عاد الأموى لى خاطبا أجبتة، فوجهت إلى الرجل من ساعتها أن غُذ إلى عقال خاطبا. فلما كان من غد نحر (ذبيح) عدة من الإبل وأطعم الناس وفرق عليهم الأموال، وكان قد دعا الحىّ جميعه وفيهم عقال، فلما أكلوا أعاد القول فى الخطبة، فأجابه عقال وساق الرجل مهرا كبيرا قرّت له عين الأم، أما عفراء فكانت تنشد:

يا عُرُوْا إن الحىّ قد نقضوا عهدَ الإله وحاولوا الغَترَا

ولما كان الليل دخل بها زوجها، وأقام في بني عذرة ثلاثة أيام، ثم ارتحل إلى الشام مع صاحبه.

عودة عروة

فكر عقاب كيف يلقي عروة، وهواه تفكيره إلى أن يحتال عليه، فعمد إلى قبر عتيق، فجدهه وسواه، وسأل الحَيَّ كتمان أمرها. وقدم عروة بعد أيام، فنعاهها أبوها إليه، وذهب به إلى ذلك القبر، فمكث يختلف إليه وهو يتن ويتفجع، وكان يأتي دارها فيلصق صدره بها، ويتنحب أحرَّ انتحاب، فعدله بعض الناس وقالوا له إنك تشرف على التلف، فأنشد:

بَيَّ الْيَاسُ وَالِدَاءُ الْهَيَامُ سُقَيْتَهُ فَيَاكَ عَنِّي لَا يَكُنْ بِكَ مَا بَيَا

ورقت لخاله بعض فتيات الحَيِّ، فأخبرته بحقيقة ما كان من عمه وأنه غدر بوعده ولم يوف بعهده، ولما صح عنده ما أنبأته به الفتيات أنشأ يقول:

فِيَا عَمَّ يَا ذَا الْغَدْرِ لَا زِلْتَ مَبْتَلَى	حَلِيفَا لَهُمْ لَا زِمَ وَهَوَانِ
غَدَرْتَ وَكَانَ الْغَدْرُ مِنْكَ سَجِيَّةً	فَالزِمْتَ قَلْبِي دَائِمَ الْحَفَقَانِ
وَأَوْرَثْتَنِي غَمًّا وَكَرْبًا وَحَسْرَةً	وَأَوْرَثْتَ عَيْنِي دَائِمَ الْهَمَلَانِ
فَلَا زِلْتَ ذَا شَوْقٍ إِلَى مَنْ هُوِيْتَهُ	وَقَلْبِكَ مَقْسُومًا بِكُلِّ مَكَانِ

إلى عفراء بالشام

ولم يلبث عروة أن عزم على الرحلة إلى الشام، لعله يرى عفراء ويشفي غليله بنظرة منها، فركب بعض إبله وأخذ معه زادا ونفقة واتجه إلى الشام فقدمها، وسأل عن الرجل فأخبره الناس به ودلوه عليه، فقصدته، فأكرمه دون أن يعرفه وأحسن ضيافته، ومكث عنده أياما حتى أنس به. ثم عزم على أن يكشف عن

نفسه لصاحبه، فقال لجارية لها كانت تقدم إليه اللبن حين يصبح: هل لك في يد توليينيها؟ قالت: نعم، قال: تدفعين خاتمي هذا إلى مولاتك، فقالت: سوءة لك، أما تستحي من هذا القول؟! فأمسك عنها، ثم أعاد عليها، وقال لها: ويحك هي والله بنت عمي وما أحد منا إلا وهو أعز على صاحبه من الناس، فاطرحي هذا الخاتم في قدحها، فإن أنكرت عليك، قولي لها: اصطحب ضيف عندنا قبلك، ولعله سقط منه. فرقت له الجارية وفعلت ما أمرها به. فلما شربت عفراء اللبن رأت الخاتم في القدح، فعرفته، فشبهت، ثم قالت لجاريتهما: اصدقيني عن الخبر فصدقتها. فلما جاء زوجها قالت له: أتدري من ضيفك هذا؟ فقال: إني لا أعرفه، فقالت: إنه عروة بن حزام ابن عمي وقد كنتك نفسه حياء منه. فبعث إليه فدعاه وعاتبه على كتمانته نفسه إياه، وقال له: بالرحب والسعة، نشدتك الله لا تترك هذا المكان أبدا. وخرج وتركه مع عفراء يتحدثان، فلما خلوا تشاكيا ما وجدا بعد الفراق، وطالت الشكوى وهو يبكي أحر بكاء. ثم تاب إلى رصده، فقال لها: هذا آخر لقائنا، فقد أجهل هذا الرجل الكريم وأحسن إلى وأنا خجلان منه، ووالله لا أقيم بعد علمه مكاني، وإني عالم أني راحل إلى منيتي، فبكيت وبكى وانصرف.

فلما جاء زوجها وعرف أن عروة راحل قال لها: يا عفراء امنعي ابن عمك من الرحيل، فقالت: هو والله لا يمتنع، إنه أكرم وأشد حياء من أن يقيم بعد ما جرى بينكما. فدعاه وقال له: يا أخي اتق الله في نفسك فقد عرفت خبرك، وإنك إن رحلت تلفت، ووالله لا أمنعك من الاجتماع معها أبدا، ولئن شئت لأفارقنها من أجلك، فجزاه خيرا وأثنى عليه وقال: إنما كان الطمع فيها آفتى. والآن قد يشمت وحمّلت نفسي على الصبر فإن اليأس يسلي، ولي أمور ولا بد من رجوعي إليها، فإن وجدت بي قوة عدت إليكم وزرتكم، حتى يقضى الله من أمرى ما يشاء، فزودوه وأكرموه وشيعوه، ومضى راجعا إلى قومه.

يأس وخبل

وكان عروة يتماسك في أول طريقه إلى قومه، ثم لم يلبث أن أصابه خفقان وغشيان، فكان يلقي على وجهه حمارا لعفراء زودته به، فيقيق، وينشد:

بَنَّا مِنْ جَوَى الْأَحْزَانِ وَالْبَعْدِ لَوْعَةً تَكَادُ لَهَا نَفْسُ الشَّفِيقِ تَذُوبُ
وَمَا عَجَبِي مَوْتَ الْخَبِينِ فِي الْهَوَى وَلَكِنْ بَقَاءُ الْعَاشِقِينَ عَجِيبُ

وانتهى إلى أهله، وقد سلب عقله ومسه الخبل، ولم يعد يعي شيئا مما حوله، وأقام أياما لا يتناول طعاما، فخرجوا به ليلة إلى فضاء ليتزده، فسمع رجلا يقول لابنه: على أى ناقة حملت قِربَ الماء؟ فقال على العفراء (ناقة) ولم يكده عروة يسمع ذلك حتى أغمى عليه، فلما أفاق أنشأ يقول:

وَالِي لَتَعْرُونِي لِلذِّكْرِكِ رِغْدَةً لَهَا بَيْنَ جِلْدِي وَالْعِظَامِ دَيْبُ
فَوَاللَّهِ لَا أُنْسَاكِ مَا هَبَّتِ الصَّبَا وَمَا أَعْقَبَتْهَا فِي الرِّيَاحِ جَنُوبُ

التداوى من الحب

واشتد الخبل والهذيان بعروة كما اشتد به الضنا والنحول حتى لم يكده يبقى منه شيء فقال قوم: إنه مسحور وقال قوم: بل به جنة وقال آخرون: بل هو موسوس، ثم قالوا لأهله: إن في الإمامة (بالجنوب الشرقي من بلاد العرب) عروفا طبيا حاذقا يداوى من الجن، وهو أطبُّ الناس، فلو أتبعتموه، فلعلم الله يشفيه، فساروا إليه من أرض بني عذرة (في شمالي الحجاز) فجعل يسقيه السلوان وهو لا يزداد إلا سقما، فقال له عروة: هل عندك للحب دواء أو رقية، فقال: لا والله. فانصرف عنه مع أهله، وهو يقول:

أَقُولُ لِعُرَافِ الْيَمَامَةِ دَاوْنِي فَإِنَّكَ إِنْ دَاوَيْتَنِي لَطِيبُ
وَمَا بِي مِنْ خَبَلٍ وَلَا مَسِّ جِنَّةٍ وَلَكِنْ عَمَى يَا أَخِي كَذُوبُ

فواكبدا أمست رُفَاتاً كأنما يلدّعها بالموقدات طيبٌ
عشية لا عفراء منك بعيدة فتسلو ولا عفراء منك قريب

وسمع أهله بعرف آخر في الحِجْر بالقرب من ديارهم، فقصدوه به، فعالجه، وصنع به مثل صنيع عراف اليمامة فلم يزد إلا ضنى وسقما. وقال له عروة: والله ما دأى ودوائى إلا شخص مقيم بالشام، فهو دأى وعنده دوائى وهو الذى أمرضنى وأضناني، فيس العراف من شفائه، ومضى به أهله إلى ديارهم يائسين وهو ينشد فى الحين بعد الحين:

جعلت لعراف اليمامة حكمة وعرف حِجْر إن هما شفياني
فقالا: نعم، نشفى من الداء كله وقاما مع الغواد بيتدران
فما تركا من رُقية يعلمانها ولا سلوة إلا وقد سقياني
وقالا: شفاك الله، والله ما لنا بما حُمِلت منك الضلوع يدان

موت العاشقين

وما زال عروة يعانى من حبه، وأهله يعنون به، حتى أصبح خيالا، والناس ينظرون إليه ويتعجبون من أمره، والموت يروح ويغدو بين عينيه. وظل على ذلك الحال حتى فاضت نفسه، وهو يقول:

من كان من أخواتى باكياً أبدا فاليوم أنى أرانى اليوم مقبوضا

وبرزت أخواته فشققن ثيابهن وضربن خدودهن، فأبكين كل من حضر، ومات من يومه. ولما بلغ موته عفراء قالت لزوجها: قد كان من أمر عروة ما بلغك والله ما كان ذلك إلا على الحسن الجميل وقد مات بسببى ولا بد لى أن أقيم مأتما عليه وأندبه، فأذن لها فى ذلك. فشدت الرحال إلى قبره وظلت تندبه ثلاثة أيام وهى تنشد:

فلا لقيَ الفتيانُ بعدك راحةً ولا رجعوا من غيبةٍ بِسلامٍ
ولا وضعتُ أنثى تماماً بمثله ولا فَرِحْتُ من بعدهِ بغلامٍ

ولم تزل تردد هذه الأبيات وتبكي حتى ماتت، فدفنت إلى جانبه، فنبئت من
القبرين شجرتان، حتى إذا طالتا التفتا، فكان الناس يعجبون من ذلك.

كثير وعزة

ابتداء الحب

كان كثير من قبيلة خزاعة، وكان شاعرا مبدعا، وكانت عزة من قبيلة ضمرة، وتعلق بها وأكثر فيها من الغزل حتى عرف بها، فسمى كثير عزة، وكانت أول علاقة له بها أنه خرج خلف غنم يسوقها إلى موضع بالقرب من المدينة فلما كان بمنازل بني ضمرة مر بنسوة فساخن عن الماء، فقلن لعزة، وهي جارية قد كعب ثدياها: أرشديه إلى الماء، فأرشدته وأعجبته، وغابت قليلا، ورجعت إليه وهو يسقى غنمه، فقدمت له طائفة من الدراهم، وقالت: يقلن لك النسوة: بعنا بهذه الدراهم كبشا من غنمك، فأمر غلاما معه أن يدفع إليها كبشا، وقال لها: رُدِّي الدراهم وقولي هن: إذا غدوت عليكن اقتضيت حقي.

فلما غدا عليهن في اليوم الثاني جاءته امرأة منهن بدراهمه، فقال: أين الصبية التي أخذت مني الكبش، قالت: وما تصنع بها؟ إنها عزة وما شأنك؟ فقال: عزة غريمي، ولست آخذ حقي إلا منها، فمزحت معه وقالت: عزة جارية صغيرة، وليس فيها وفاء لحقك، فأحله على أو على إحدى النسوة اللاتي رأيتهن فإننا أملأ به منها وأسرع له أداء، فقال: ما أنا بمحيل حقي عنها وأنشد:

قضى كل ذي دين فوفى غريمه وعزة مطولٌ مُعنى غريمها

ومضى لوجهه، ثم رجع بعد أن فرغ من بيع غنمه، يسأل عن عزة وينشد:

نظرتُ إليها نظرةً وهي شاخص
على حين أن شبتُ وبان نهودها
من الحفّرات البيض وذُ جليسها
إذا ما انقضتُ أحدى لوتُ عيدها
نظرتُ إليها نظرة ما يسرني
بها حمُرُ أنعام البلادِ وسودها

ولما أبى أن يأخذ الدراهم إلا أن يراها أبرزتها له المرأة وهى كارهة لذلك، وأحبته عزة بعد ذلك أشد من محبته لها.

غلام لكثير مع عزة

وكان لكثير غلام تاجر فباع من عزة بعض سلعه وماطلته مدة وهو لا يعرفها، فقال لها يوما: أنت والله كما قال مولاي كثير:

قضى كل ذى دين فوقى غريمه وعزة ممطولة مُعْنَى غريمها

فانصرفت عنه خجلة، فقالت له امرأة: أتعرف عزة؟ قال: لا والله، قالت: فهذه عزة، قال: لا جرم والله لا آخذ منها شيئا أبدا. ورجع إلى مولاه فأخبره بذلك، فأعتقه ووهب له المال الذى كان فى يده.

لقاء

سار كثير إلى صديق من حى عزة فنزل عنده، وتوسل إليه أن يجمعه بعزة، فصار به إلى منزله ، حتى كان العشاء ، فأخذ خاتمه ، وجاء بيتها، فسلم، فخرجت إليه فأعطاه الخاتم، فقالت: أين الموعد؟ فقال: شجرات أبى عبيد الليلة ، ورجع إليه، فأعلمه. فلما جن الليل قال له كثير: انهض بنا ونهض معه فجلسا هناك يتحدثان حتى أقبلت ، فجلست. وتحدث كثير وعزة فأطالا، وأراد الرجل أن يدهما وشأنهما، فذهب يقوم، فقال له كثير إلى أين تذهب ، فقال: أخليكما ساعة لعلكما تتحدثان ببعض ما تكتتمان . فقال له كثير: اجلس فوالله ما كان بيننا شئ قط. فجلس الرجل وهما يتحدثان وبينهما شجرة عظيمة وهى من ورائها جالسة ، وما زالا كذلك حتى برق الصبح، فقامت وودعت وانصرفت.

امتحان

أرادت عزة أن تمتحن كثيرا وترى ما لها عنده، فانتقبت يوما وممرت به،
فرآها وهي تتبختر في مشيتها، فلم يعرفها، فاتبعها وقال: يا سيدتي قفي حتى
أكلمك فإنني لم أر مثلك قط فمن أنت ويحك؟ قالت: ويحك وهل تركت عزة
فيك بقية لأحد؟ وإنما لك في صدق المودة ومحض الشجة والهوى على حسب
الذي كنت تهدي لها من ذلك وأكثر، وأين قولك:

إذا وصلتنا خلّة كي نزيلها آيينا وقلنا الحاجبية أول

فقال كثير: بابي أنت وأمي أقصرى وكفى عن ذكرها، واستمعى ما أقول، ثم
أنشدها قوله، وقد صنعه توا:

ما وصل عزة إلا وصل غانية في وصل غانية من وصلها خلف

ثم قال لها: هل لك في المصادقة والمخاللة؟ فقالت: كيف بعد الذي قلته في عزة
وسار في الناس من غزلك وشعرك، ثم سفرت عن وجهها وقالت: أغدرا
وانتكاثا يا فاسق؟! فهبت ولم ينطق بكلمة وتحير وخجل، ثم إنها أخذت في بيان
غدره ونكته وقلة حفاظه ونقضه للعهد والميثاق، ثم قالت: لله جميل حيث
يقول:

لحي الله من لا يفع الودّ عنده ومن حبله إن مُدَّ غير متين
ومن هو ذو وجهين ليس بدائم على العهد حلافٌ بكل يمين

فأنشأ كثير يعتذر إليها ويتصل بالخزال وانكسار، وأخذ يحتال في دفع زلتها،
وهي تؤنبه أعنف تأنيب، وهو يقول لها: ألم تسمعي قرني:

يزهّدني في حب عزة معشر قلوبهم فيها مخالفة قلبي
فقلت دعوا قلبي وما اختار وارتضى فبالقلب لا بالعين يصبر ذو اللب

وما تبصر العينان في موضع الهوى ولا تسمع الآذان إلا من القلب
ولم تأبه له، وانصرفت عنه غاضبة.

امتحان ثان

وأرادت عزة امتحان كثير مرة ثانية، فقالت لبثينة صاحبة جميل: تصدئي
لكثير وأطمعيه في نفسك حتى أسمع ما يجيبك به، فأقبلت إليه وعزة تمشى
وراءها من بعيد متخفية. وعرضت لبثينة على كثير الوصل، فقاربها وهو ينشد:

رمتني على عمدٍ لبثينة بعدما تولى شبايى وأقبلن شبايها
بعينين نجلاوين لو رقرقتهما لنجم الثريا لاستهل سحابها

فكشفت عزة وجهها، فبادرها الكلام، وأتم شعره قائلا:

ولكنما ترمين نفسا مريضة لعزة منها صفوها ولبابها

فضحكت، ثم قالت لبثينة: أولى لك منى النجوت. ومرتا تتضحكان.

عزة تتزوج

تدافعت الريب والشكوك على عزة، وظنت أن كثيرا غير صادق في هواها،
فاحتجبت عنه، وتقدم لها فتى من عشيرتها يطلب الزواج بها فتزوجته. وكان
كثير قد غاب عنها في مديح بعض الرؤساء والحكام، لعله يصيب من المال ما
يمكنه من زواجها، فأصاب خيرا. ثم قدم فوجدها قد تزوجت، فجزع وبكى
أشد بكاء، وكان مما أشد:

خَلِيلِيْ هَذَا رَبُّعُ عَزَّةٍ فَأَعْقِلَا بعيريكما ثم ابكِا حيث حَلَّتْ
وما كنت أدري قبل عَزَّةٍ ما البكا ولا موجعات القلب حتى تَوَلَّتْ

كأني أنادى صخرةً حين أعرضتُ من الصُّمِّ لو تمشى بها العُصْمُ زَلَّتْ
صَفْوَحا فما تلقاكُ إلا بخيلةً فَمَنْ مَلَّ منها ذلك الوصلَ ملَّتْ
أصاب الرَّدَى مَنْ كان يهوى لك الرَّدَى وجُنَّ اللواتي قلن عَزَّةً جُنَّتْ
وما أنصفت أما النساء فَبَغَضَتْ إلی وأما بالنوال فضنَّتْ

وأصبح لا يهنا له طعام ولا شراب، حتى أخذه الضنا والسقام، فكان يرحل
في الصحراء رحلات بعيدة يطلب السلو والنسيان.

كثير ومجنون ليلي

وخرج كثير مرة يسير في الفيافي، فإذا رجل معه ظبي، فسلم عليه فرد
السلام، فقال له: أتعلمني من هذه الظبية التي معك؟ فقال إى والله. فنزل،
فعلق ناقته وجلس يحادثه، وإذ هو أحسن خلق الله حديثا وأرقه وأغزله، وأقبل
على الظبية يقول:

أيا شبه ليلي لن تراعى فإننى لك اليوم من بين الوحوش صديقُ
ويا شبه ليلي لن تزال بروضةٍ عليك سحابٌ دائمٌ وبروقُ
فديتك من أخلدٍ دهاك حُبُّها فأنْتِ ليلي ما حييتِ طليقُ

ثم أطلقها، فمرت تجرى. فعجب كثير من شأنه، وقال لا أبرح حتى أعرف أمر
هذا الرجل، فلما أمسى قام إلى غار قريب من الموضع وقام معه كثير، فباتا في
الغار. فلما أسفر الصباح قام وإذا ظبية تعدو فعدا خلفها حتى أمسك بها ونظر
في وجهها مليا، ثم أطلقها فمرت وأنشأ يقول:

أذهبي في كلاءة الرحمن أنت منى في ذمةٍ وأمان
ترهيبينى والجيد منك كليلى والحشا والنحول والعينان
لا تخافى فلن تفاجى بسوء ما تغنى الحمام فى الأغصان

وظل كثير معه يومه، ولما أمسيا صاروا إلى الغار فباتا فيه، ووقعت لهما فى الصباح ظبية فوثب الجنون خلفها، حتى أمسكها، وأراد أن يطلقها، فقبض كثير على يده، وقال له: لقد متنا من الجوع وكلما أمسكت بظبية أطلقناها، فنظر فى وجهه وعيناه تدرفان وبكى كثير لبكائه، وسأله نسبه، فعرف أنه مجنون ليلى، فودعه، ومضى لوجهه.

عتاب

ومر كثير فى بعض غدواته وروحاته على حىّ عزة وهو راكب بعيره، فرآها فى نسوة فأقبل عليها وقال: السلام عليك يا عزة، فقالت: عليك السلام يا جمل، فنزل عن الجمل وأطلقه وأنشد:

حَيْتُكَ عَزَّةٌ بَعْدَ الْمَجْرِ وَانصرفتُ	فَحَيِّ وَيْحَكَ مَنْ حَيَّاكَ يَا جَمْلُ
لَوْ كُنْتُ حَيِّتُهَا مَا زِلْتُ ذَا مِقَّةٍ	عِنْدِي وَمَا مَسَّكَ الْإِدْلَاجُ وَالْعَمَلُ
لَيْتَ السَّحِيَّةَ كَانَتْ لِي فَأَشْكُرُهَا	مَكَانَ يَا جَمْلُ حَيِّتَ يَا رَجُلُ

فالتفت إليه معاتبة، وقالت: ويحك ألا تتقى الله، أرايت قولك الذى أشهرتنى به:

بَايَةَ مَا أَتَيْتُكَ أُمُّ عَمْرٍو قَقَمْتُ لِحَاجَتِي وَالْبَيْتُ خَالِي

أخلوت معك فى بيت قط، فقال: لم أقل ذلك أبدا، ولكننى قلت:

وَأَقْسَمَ لَوْ أَتَيْتُ الْبَحْرَ يَوْمًا لَا شَرِبَ مَا سَقَتْنِي مِنْ بِلَالٍ

فقالت: أما هذا فعنهم، ثم قامت، فمرت إلى خباتها، وهو يتبعها بعينه ويبكى ويتشد:

الله يعلم لو أردت زيادةً في حب عزة ما وجدت مزيداً
 رهبان مدين والدين عهدتُ سيكون من حذر العذاب قعوداً
 لو يسمعون كما سمعتُ حديثها خرواً لعزة خاشعين سجوداً
 والميتُ يُنشر إن قُسم عظامه مساً ويخلد إن يراك خلوداً

في الطريق إلى الحج

حج كثير في سنة من السنين وحج زوج عزة بها ولم يعلم أحد منهما
 بصاحبه، فلما كانوا في بعض الطريق أمرها زوجها أن تتاع سمناً من بعض من
 في القافلة تصلح به طعاماً لأهل رفقته، فجعلت تسأل في القافلة، حتى لقيت
 كثيراً وكان يرى أسهما له، فلما رآها جعل ينظر إليها وهو مستمر في بربه
 للسهم، فبرى ساعده وهو لا يشعر فجرى الدم منه، فلما تبينت ذلك أمسكت
 يده وجعلت تمسح الدم عنها بثوبها، وقال لها: عم تبحتين، فعرفته بغيتها، وكان
 عنده قرح سمن فحلف لتأخذه. فأخذته وجاءت به إلى زوجها. فلما رأى الدم
 سألها عن خبره فكأتمته، حتى حلف لتصدقنه فصدقته، فحلف لرجعن وتشتمن
 كثيراً في وجهه، وجاء بها إليه، فوقفست عليه وهو معها، فسبته وهى تبكى،
 وعرف كثير سبب بكائها فقال:

يكلّفها الخنزير شتمى وما بها هوانى ولكن للمليك استدلّت
 هنيئاً مريئاً غير داء مخامر لعزة من أعراضنا ما استحلّت
 وقلت لها يا عزة كل مصيبة إذا وطئت يوماً لها النفس دلت

مرض عزة وموت كثير

ومرضت عزة مرضاً شديداً، وسع بذلك كثير، فجزع عليها جزعاً ممضاً،
 ولم يدارها يسأل عنها وينشد هذه الأبيات:

يقولون سوداءُ العيون مريضة فاقبلتُ من أهلى إليها أعودها
 فوالله ما أدرى إذا أنا جئتُها أبرئها من دائها أم أزيدها
 إذا جئتُها وسَطُ النساءِ منحتها صدودا كأن النفس ليس تريدها
 ولى نظرة بعد الصدود من الجوى كنظرة ثكلى قد أصيب وحيدها

وعوفيت ليلى، ولم تمض إلا مدة يسيرة، حتى مات كثير، فخرجت عزة إلى
 جنازته ومعها كثير من النساء يكيه ويندبه ندبا حارا.

توبة وليلى الأخيلىة

نشأة الهوى

كان توبة شابا شجاعا مبرزاً فى قومه آل خفاجة سخيّا فصيحاً مشهوراً بمكارم الأخلاق ومحاسنها، وكان قومه ينزلون فى بادية الحجاز مجاورين لبني الأخيل العامرين، ويذهبون معهم فى الحروب والغزوات، وكان شيخ بني الأخيل حذيفة بن شداد، وكان له ابنة شاع فى العرب ذكرها بالحسن والفصاحة وحفظ أنساب العرب وأيامها وأشعارها، وحدث أن غزا بنو خفاجة وبنو الأخيل يوماً. فلما رجعوا من غزوهم حانت من توبة التفاتة، وقد برزت النساء للقاء القادمين من الغزو، فرأى ليلى، فافتت بها، فجعل يعاودها، فيتحدث معها، إلى أن أخذت قلبه وأطارت لبه، فشكاها يوماً ما نزل به منها، فأعلمته أن بها منه أضعاف ذلك فأقاما على التزاور وشكاية الهوى.

زواج ليلى

كان توبة يقول الشعر فى ليلى، فخطبها إلى أبيها، فأبأها عليه لعادة العرب أن لا يزوجوا بناتهم لمن يتغزل بها ويشهر فى الناس اسمها، وتقدم إليها شاب من عشيرة بني الأدلع فزوجها أبوها له، ففلق توبة. وكان يزقب غفلات الحى فى الليل فيزورها.

فلما كثر منه ذلك خرج أبوها وزوجها ومعهما نفر من قومهما إلى السلطان، فشكوا إليه ما ناهم من توبة وما شهرهم به، وسألوه الكتاب إلى عامله عليهم بمنعه من الإلام بليلى والكلام إليها أو الحديث معها، فكتب لهم

توبة وليلى الأخيلية

١٠٧

كتابا إلى عامله يأمره فيه أن يحضر توبة ويتقدم إليه في ترك زيارة ليلي، فإن أصابه أهلها عندها فقد أهدر دمه. فلما ورد الكتاب على عامله بعث إلى توبة وأهله فجمعهم وقرأ عليهم كتاب الخليفة، وقال لتوبة: اتق الله في دمك لا يذهب هدرا. وخرج مع قومه فأخذوا يلومونه وينهونه عن الاقتراب من ليلي ودارها، فبكى، وسمع حمامة تزغم، فقال:

حمامة بطن الواديين	ترمى	سقاك من الغر العوادي	مطيرها
أبيني لنا لا زال	ريشك ناعما	ولا زلت في خضراء	غص نصيرها
يقول رجال لا يضرك	نأيها	بلى كل ما شق	النفوس يضيرها
وإني ليشفيني من الشوق	أن أرى	على الشرف النائي	المخوف أزورها
أرى اليوم يأتي	دون ليلي كأنما	أنت حجاج	من دولها وشهورها

علامة بين العاشقين

ظل توبة يزور ليلي خفية، فطلبه قومها، ولما خافت عليه منهم جعلت بينه وبينها أمارا، فقالت له: إذا مررت فوجدتني مبرقة فاجلس إلى مطمئنا فلا خرج حينئذ، فإذا رأيتني سافرة فلا تقرب مني واحتط لنفسك وخذ الحذر.

ودخل على ليلي زوجها، وكان غيورا، فحلف إن جاءها توبة ولم تعلمه بمجيئه ليقتلنها، وكانت تعرف الجهة التي يجيئها منها، فرصدوه بموضع، ورصدته بآخر، فجاء، فأسرعت وألقت البرقع عن رأسها، فلما رآها سافرة فطن لما أرادت وعلم أنه قد رُصد وأنها سفرت لذلك تحذره، فركض فرسه وتولى آسفا وهو ينشد:

وكنت إذا ما زرت ليلي	مبرقة	فقد رابني منها	الغداة سفورها
وقد رابني منها	صدود	رأيت	وإعراضها عن حاجتي وقصورها

زيارة

ولما اشتد زوج ليلى وأهلها عليها فى مراقبتها ظلت لا تمكنه من زيارتها ولقائها إشفافا عليه وخوفا على نفسها، وخرجوا فى لجة، فأرسلت إليه من يخبره. فذهب إليها وتحادثا وتشاكيا ما يلقيان من الوجد وما زال معها حتى انكشف النهار، فودعها ومضى وهو يقول:

أليس يضربُ العينَ أنْ تكثرُ البكا ويُمنعُ منها نومها وسرورها
لكلِّ لقاءٍ نلتقيه بشاشةٍ وإنْ كان حولا كل يوم نزورها

عتاب

بلغ ليلى أن توبة يتحدث فى شعره عن زيارته لها وأنها تلقاه فى نجاتها، فغضبت غضبا شديدا، وقالت إنه يقول ما يرينى وما التقيت معه إلا على عفاف. وأمسكت عن لقائه فتوسل إليها بكل وسيلة أن تلقاه. فأبت ذلك إباء شديدا، وقالت إنه يريد أن يفضحنى بما لم يحدث. فأرسل إليها أنه سيتناول السم أو يلقي بنفسه من رأس جبل، فرقت له، ودعته إلى زيارتها بعد أن جمعت ثلاثة من أهلها، بحيث يخفون عليه. فلما جاءها قالت له: أى خدر دخلت معى حتى تشيع ما تشيع، فاعتذر إليها وتصل جهده، وقال لها: إن الوشاة الأعداء هم الذين يشيعون ذلك حتى يفرقوا بيننا، وأما أنا فقلت:

علىَّ عَيْنُ اللَّهِ إِنْ كَانَ بَغْلَهَا يرى لى ذبسا غير أنى أزورها
وإنى إذا ما زرتها قلت يا اسلمى وما كان فى قولى اسلمى ما يضيرها
فسرت لقوله، ولسماع أهلها ما يبرئ ساحتها.

رقابة الزوج

وكان زوج ليلى لا يزال يراقبها ويرتاب فى أمرها، وكلما رأى حول بيته

شبحا ظنه توبة وأنها على موعد معه. فمن ذلك أن رجلا من عشيرة أخرى غير عشيرتها ابتغى إبلا له ضلت منه، وما زال يبحث عنها، حتى دخل عليه الليل بالقرب من خيأ ليلي. فنزل حيث ينزل الضيف، وأبصرته ليلي ولم تكلمه لأن زوجها كان غائبا. فلما كان بعد هداة من الليل، وتراءى شبح الرجل من بعيد، فخاله زوجها توبة. فدخل عليها يناجيها ويقول: ما هذا السواد حذاءك؟ قالت: راكب أناخ بنا حين غابت الشمس ولم أكلمه. فقال لها: كذبت، ما هو إلا توبة أو بعض أصدقائك. ونهض يضربها وهي تناشده. فقال لها: والله لا أترك ضربك حتى يأتي ضيفك هذا فيغيثك. فلما عيل صبرها قالت: يا صاحب البعير، يا رجل. وأقبل الرجل يسرع حتى أتاها وزوجها يضربها، فأخذ بخنقه. فعرضت ليلي للرجل وقالت له: يا عبد الله: مالك ولنا؟ نح عننا نفسك.

وانصرف الرجل، حتى إذا كان الغد ألم بالحى، ورأى غنما فيها راعية، فسألها عن أشياء، حتى بلغ به الذكر، فقال لها أخبريني عن أصحاب الخباء الفلاني وعين لها الخباء الذى رأى فيه حادث الأمس. فضحكت وقالت له: إنك تسألنى عن شئ أنت به عالم، فقال: وما ذاك، لله بلادك؟ فوالله ما أنا به عالم، قالت: ذاك خباء ليلي الأخيلية وهي أحسن الناس وجها، وزوجها رجل غيور، فهو يعزب بها عن الناس فلا يقيم بها معهم، وما يقربها أحد ولا يضيفها، فكيف نزلت أنت بها؟ فقال: إنما مررت فنظرت إلى الخباء ولم أقربه، وكتم عنها الأمر.

زواج توبة

لما بالغ زوج ليلي فى مراقبتها هجرت توبة، فأضناه الشوق حتى أسقمه، فلامه رفقاؤه، وقالوا له إنك تضيع عمرك وراء ذات بعل، وأولى لك أن تطلب غيرها، وفى العرب جميلات كثيرات، فافرق بنفسك وتزوج من امرأة لعلمها

تنسيك صبايتك بليلي، واحذر لقاءها، فإن زوجها بالمرصاد وقد أهدر السلطان دمك، فلا تغرر بنفسك.

ونزل توبة في بعض نجمات قومه برجل أكرمه، وكان له ثلاث بنات، وأعجب به فعرض عليه إحداهن ليكون بعلا لها، فاختار كبراهن، ومكث معها عند أبيها مدة، ولكنها لم تنسه ليلي، فقد عاوده الحب وعاودته أسقامه.

ريية عارضة

عاد توبة إلى قومه، وجعل يزداد به الوجد، وينشد في ليلي أشعاره، وهي معرضة عنه، لما عرفت من زواجه. غير أنه لم يكف عن الإلام بدارها حتى حانت له يوما فرصة، فحدثها وحدثته، وكان أول ما قالت له: إنك قد علققت بأخرى فما لك لا تكف عنا، فحلف لها أنه لم يقربها وأنه لا يزال يحفظ ودها وعهدا، ثم بدرت منه كلمة ظنت أنه خضع فيها لبعض الأمور، فقالت له:

وذي حاجة قلنا له: لا تبخ بها فليس إليها ما حييت سبيل
لنا صاحب لا ينبغي أن نخونه وأنت لأخرى فارغ وحليل

ففطن أنها استراحت منه، فحلف أنه لم يرد سوءا، فاستشاطت غضبا وودعها على استحياء ومضى.

الرحيل إلى الشام

ولما لج بتوبة الحب نصحه بعض أهله أن يرحل إلى الشام غازيا، لعله ينسى حبه، واستمع إلى نصحتهم، فخرج إلى الشام ومرو بنى عذرة، فرأته بثينة، فجعلت تنظر إليه، فشق ذلك على جميل، فقال له جميل: من أنت؟ قال أنا توبة الخفاجي، فقال له: هل لك في الصراع؟ قال: ذلك إليك، فشدت عليه بثينة

ثوباً مصبوغاً، فلبسه، ثم صارع توبة فصرعه. ثم قال له: هل لك فى النضال ورمى السهام؟ قال: نعم ففاضله، فنضله. ثم قال له: هل لك فى السباق؟ فقال نعم، فسابقه، فسبقه. فقال له توبة: يا هذا إنما غلبتني بما شئت من عزيمتك هذه الجلالة، ولكن اهبط بنا الوادى، فصرعه توبه ونضله وسبقه.

العودة سريعاً

لما دخل توبة الشام أقام بها يسيراً، ولم يستقر به المقام، فقد كانت تعاوده ذكرى ليلي الأخيلية، وكان يخرج إلى التلال والروابي، ليعزى نفسه، وجزع جزعاً شديداً وأصبح دأبه البكاء، فلم يلد له حال، ولا نعم له بال. فعاد إلى قومه، وحين دخل حى ليلي لقي صغيراً يلعب، فقال له: هل أنت عارف بليلى؟ قال: نعم، قال: امض وأنشد:

وكت إذا ما زرت ليلي تبرقعتُ فقد رابني منها الغداة سفورها

وعد إلىّ وقل لى ما تحببك به. فمضى الغلام، فأنشد ليلي البيت، فعلمت أن توبة قد ورد الحى، فقالت للغلام: قل له إنها الآن مبرقة، فمضى الغلام إليه وأعلمه ذلك، فأقبل إليها فجدد زيارتها على خيفة من زوجها.

موت توبة

كان بين بنى خفاجة قوم توبة وبعض قبائل العرب حروب وثورات، وكانت المعارك لا تزال ناشبة بينهما، فاشترك توبة يوماً فى بعض هذه المعارك، وأبلى بلاءً حسناً، ولكن سهماً أصابه من بعض الأعداء، فخر مغشياً عليه وحضرته الوفاة، فقال له ابن عم له: هل لك حاجة أبلغها إلى أهلِكَ، فقال: نعم تبلغ ليلي الأخيلية هذه الأبيات:

ولو أن ليلي الأخيثة سلّمت
 لسلّمت تسليم البشاشة أو زقا
 ولو أن ليلي في السماء لأصعدت
 بأعبط من ليلي بما لا أناله
 وهل تبكين ليلي إذا مت قبلها
 كما لو أصاب الموت ليلي بكيتها
 على ودوني تُربةً وصفائحُ
 إليها صدّى من جانب القبر صائحُ
 بطرفي إلى ليلي العيون الكواشحُ
 ألا كل ما قرّت به العين صالحُ
 وقام على قبري النساء النوائحُ
 وجاد لها جارٍ من الدمع سافحُ

فقال: إني مبلغها، فقال توبة: وهل لك في أخرى؟ جزاك الله خيرا قال: ما هي؟
 قال: إذا بلغت الحنّى فاصعد إلى شرف (مكان عال) ثم اهتف بهذا البيت:

عفا الله عنها هل أبيت ليلةً من الدهر لا يسرى إلى نياها
 فأقبل الرجل على ليلي فأبلغها أبيات توبة، فبكت بكاء شديدا. ثم صعد
 شرفا، وأشد البيت، فأجابت ليلي:
 وعنه عفا ربى وأحسن حفظه عزيز علينا حاجة لا ينالها

ليلى تندبه حتى الموت

وأسرعت ليلي فخلعت زيتها، وأقامت على الحزن طوال حياتها من بعد
 توبة، لا يهنأ لها طعام ولا شراب، وأكثرت من ندبه والنواح عليه من مثل قولها:

لتبك عليه من خفاجة نسوة بدمع كفيض الجدول المتفجر

وقولها:

فلا يبعدنك الله يا توب هالكا
 وآليت لا أنفك أبكيك ما دعت
 أخا الحرب إن دارت عليك الدوائر
 على فن ورقاء أو طار طائر

توبة وليلى الأخيلية

١١٣

ولها فيه قصائد وأشعار كثيرة، تندبه بها ندبا حارا، وكانت لا تقبل من سفر إلا تمر بقبره وتبكيه بكاء مرا، وأقبلت على القبر يوما ومعها زوجها، وهي في هودج لها، فقالت: والله لا أبرح حتى أسلم على توبة. وتركها زوجها فصعدت أكمة عليها القبر، فقالت: السلام عليك يا توبة، ثم التفتت إلى من معها من القوم وقالت: ما باله لا يسلم على، تشير إلى قوله

ولو أن ليلى الأخيلية سلّمت علىّ ودونى تُربةً وصفائخُ
لسلّمتُ تسليمَ البشاشة أو زقا إليها صدّى من جانب القبر صائخُ

وكانت إلى جانب القبر بومة كامنة، فلما رأت الهودج فزعت وطارت في وجه الجمل، فنفر، فرمى بليلى على رأسها، فماتت من وقتها، فدفنوها بجواره.

الصِّمَّةُ وَرِيَّا

تعارف مبكر

كان الصِّمَّةُ الْقَشِيرِيُّ فتي من فتيان بنى عامر ومن شجعانهم وشعرائهم، وقد تعلق حين شب بابنة عمه ريا وكانت ذات حسن وظرف تعرف أيام العرب وأشعارها، وقد نشأ معا، فكانا يتذاكران الأخبار وتلحح الشعر وما جرى منه على ألسنة العشاق.

وأعجب بها الصِّمَّةُ إعجابا ملك عليه قلبه وذهب بلبه، ولم يكن عندها من الحب مثل ما عنده منه، فلما شكَا ما يجد منها إلى بعض رفقاته نصحوه أن يطلبها من عمه فإنه لن يرده خائبا.

الصِّمَّةُ يُخْطِبُ رِيَّا

وذهب الصِّمَّةُ إلى عمه فخطب منه ابنته ريا، فقال له لا أزوجه إلا على مائة من الإبل، فذهب إلى أبيه فأعلمه ذلك وشكا إليه ما يجد بها، فأعطاه تسعة وتسعين بعيرا، وقال له: هي كل ما أملك، ولعل عمك يقبلها. فلما جاء بها عمه عدها، فوجدتها تنقص بعيرا، فقال: لا آخذها إلا كاملة. فلما رأى ذلك من فعله أرسلها فعاد كل بعير منها إلى ألفه، وأخذ يبيكي نفسه وحظه.

زواج ريا

وخطب ريا من أبيها أحد فتيان بنى عامر، وكان موسرا، فأوفى له بما أراد من الإبل، وزفها إليه، فوجد بها الصِّمَّةُ وجدا شديدا وأظلمت الدنيا في عينيه، وحاول أن يلم بها أو يلقاها، فصدته عنها فبكى وأنشد:

لعمري إن كنتم على النَّأي والقَلَى بكم مثل ما بي إنكم لصديق
إذا زفراتُ الحبُّ صَعَدنَ في الحشا رُدِدنَ ولم تُنْهَجْ لهن طريق

الرحلة إلى الغزو

ولما تنازع الصمة الشوق مرض حتى أضناه السقم، فأخذه أبوه إلى كاهن،
لعله يشفيه مما به، وكان الكاهن يسمى غاوى بن رشيد، فلما سأله عن مرضه،
والح في السؤال، قال:

حننتُ إلى رِيّا ونفسُك باعدتُ مزارك من ريا وشعبا كما معا
وما حَسَنٌ أن تأتي الأمرَ طائعا وتَجَزَعُ أن داعي الصباية أسمعنا
كأنك لم تشهدْ وداعَ مُفارق ولم تر شِعبى صاحبين تقطعا
بكت عيني اليسرى فلما زجرتها عن الجهل بعد الحلم أسبنا معا
وليست عَشِيَّاتِ الحِمَى برواجع إليك ولكنْ خلَّ عينيكَ تدمعا

فقال الكاهن لأبيه أنه يشكو العشق لا غيره ، وليس له دواء عندى ، إنما دواؤه
الرحلة حتى ينسى . فعاد به أبوه إلى الحى وأخذ رفقاؤه يحثونه على الغزو
والجهاد مع المحاربين فى بلاد إيران ، فأقام مقاما يسيرا، ثم رحل مع جماعة كانوا
راحلين نحو العراق، وألم بيت ريا ، فخرجت إليه تودعه، فذكرا ما كان بينهما
وأنشد:

أما وجلال الله لو تذكرينى كذكرك ما كفكفتُ للعين مدمعا
فقلت: بلى والله ذكرا لو انه يُصَبُّ على صُمِّ الصفا لتصدعا

وتركها وهو ينشج أحرّ نشيج، ولما بعد عن الحى أظهر تولها شديدا، فصرَّه
رفاقه، وأخذوا يعزونه عنها، وهو يلتفت إلى ديارها ويقول:

ولما رأيت "البشر" قد حال بيننا وجالت بنات الشوق في الصننر نزعاً
تلفت نحو الحى حتى وجدتنى وجعت من الإصغاء ليتاً وأخذعا
وجدت الرفقة فى سيرها، وهو مسلوب العقل ذاهل القلب، لا يتحدث إلا
عن صاحبه وذكرياته وما كان من قساوة عمه، وما يزال ينشد:

وأذكر أيام الحيمى ثم أنشئ على كبدى من خشية أن تصدعا
وما زالوا جادين فى المسير حتى وصلوا إلى نهر الفرات، فقالوا له: لقد
خرجنا من جزيرتنا، فدع صاحبك وانظر إلى نفسك فإنها لو كانت صادقة الود
ما تزوجت ولا اختارت عليك، فالتفت إلى ورائه وإلى الرياح الوافدة من ديار
ريا، وقال:

إذا ما أتت الرياح من نحو أرضكم أتت برياكم فطاب هبؤها
أتت بريح المسك خالط غيراً وريح الحزامى باكرتها جنوبها
فظلوا يواسونه، ويقولون له إنك خرجت إلى الجهاد فى سبيل الله كى تنساها،
وحرام عليك أن تعود إلى ذكرها لما أنت قادم عليه من لقاء الأعداء ومنازلة
الفرسان.

الوفاة فى طبرستان

ولما التقى الجمعان أبلى فى الحرب بلاء عظيما ودل على فروسية وشجاعة
باهرة، كانت مضرب الأمثال من الأبطال والشجعان. وكان ما يزال رفقاؤه
يلحظون عليه تولعه بريا، فكانوا يسلونه، وهو عنهم ذاهل القلب، غافل عما
يقولون.

وبينما هو ينازل قرنا من الأعداء تذكر ريا، فكف عن نزاله، وحاول أن
يعود ليرجع إليها، ولكن القرن عاجله بطعنة نافذة، فخر على الأرض، فأسرع

إليه رفيق فحمله، فإذا هو يتحرك ولا يتكلم، وأصغى إليه رفيقه، فوجده يتمتم بصوت خفى:

تَعَزُّ بِصَبْرٍ لَا وَجْدُكَ لَا تَرَى نَسَاءَ الْحِمَى أُخْرَى اللَّيَالِي الْغَوَابِرُ
كَأَنَّ فُؤَادِي مِنْ تَذْكُرِهِ الْحِمَى وَأَهْلَ الْحِمَى يَهْفُو بِهِ رَيْشُ طَائِرٍ

وما زال يردد هذين البيتين حتى فاضت نفسه.

وحمل نعي الصمة إلى أهله، فخرجت ريا ونساء الحى يندبنه ويبكين فيه الشجاعة والعفة، وبكاه الرجال ورثوه طويلا. ولم تطل الأيام بريا، فقد ماتت حزنا عليه وغما .

مالك وظرفية

من أول نظرة

كان في بنى عذرة شاب حسن الوجه عذب المنطق سخي الكف يسمى مالكا، خرج يوما للصيد ، ومر في طريقه على عين ماء ، لبعض العشائر من قبيلته ، فوجد طائفة من النساء ، اجتمعن عليها ، يغترفن بعض الماء ، ومن دونهن فتاة قد انفردت تمشط شعرها ، وقد انسدل على وجهها ، كأنه البدر يلمع في الظلام، فحين أبصرها وقعت في قلبه ، ولم يكذب يحادثها وتحدثه حتى سقط مغشيا عليه، فقامت إليه، فرشت الماء على وجهه ، فلما أفاق وأبصرها تسكب عليه الماء كي يفيق ، قال : وهل مقتول يداويه قاتله ، وأنشد يحكي حاله ومآله:

خرجتُ أصيدُ الوحشَ صادفتُ قانصاً من الرِّيمِ صادتنى سريعاً جبالهُ
فلما رماني بالنبال مُسارعاً رَقاني ، وهل مَيّتُ يداويه قاتلُهُ
فقالَتْ له: كُفَيْت ما تشكو، وحادثته حتى ثابت إليه نفسه، وقد رَقَّتْ له، ثم قامت فانطلقت مع النسوة وهي تنظر إليه، فأنشد باكياً:

وما الناس إلا العاشقون ذوو الهوى ولا خير فيمن لا يحبَّ ويعشُقُ

مرض طويل

وعاد الفتى إلى حيه، ولم يعد يخرج للصيد كعادته، ومرض ولزم الفراش، فأقسمت عليه أمه أن يجبرها بحقيقة علته، فكان يخجل وينعقد لسانه، ولما ألتحت عليه أنشد متأثراً:

يا علة طالت على دنفٍ يشكو الفراق وقلة الصبر
ما كنت أعلم أنى كلفٌ حتى تلفت وكنت لا أدري
والبدري شهيد أنى هائمٌ مغرٍ بحبٍ شبيهة البدر

وقص عليها قصة رؤيته للفتاة، فسألت عنها حتى عرفت أنها ظريفة بنت صفوان ، فمضت إليها وأخبرتها بما آل إليه حاله، وعرضت عليها أن تزوره، فقالت لها: إنى لا أستطيع والناس حولي، كلهم واش حسود ، فقالت لها: إنما رجوت بزيارتك أن يبل من مرضه، فأبت أن تجيبها إلى ما أرادت ، وقصت خصلة من شعرها ، وقالت لها: أعطه هذه الخصلة ، لعله إذا أمسك بها زال عنه ما يجده وفارقه سقمه. فرجعت أمه إليه، وناولته خصلة الشعر فأخذ يقبلها ورجعت إليه نفسه قليلا قليلا.

محاولات

وكان مالك كلما اشتد عليه الوجد جعل على وجهه خصلة الشعر التي بعثت ظريفة بها إليه مع أمه ، فيستريح بعض الشئ . ولما كان فى بعض أيامه وقد خرج ليستششق الهواء سقطت منه الخصلة ، فأظلمت الدنيا فى عينيه ، وعاوده السقم والضنا وأخذ يبكى ويردد:

أكفكف جفن العين والدمع سافح كشبه غدير فوق خدّى جاريا
فيا ليت شعرى ذا البكاء إلى متى وحتى متى ذا الحزن والجسم باليا

وأخذ يلم بدارها لعله يراها فى إحدى غدواتها أو روحاتها، ورآها يوما تسير مع بعض النساء من أهلها، فخالسته وخالساها النظر، ولم يستطيعا الكلام، ورأى دمة تترقرق فى عينيها، فأنشد:

جلست لها كيما تمرُّ لعلنى أخالسها التسليم إن لم تسلم
فلما رأتنى والوشاة تحذرت مدامعها خوفاً ولم تتكلم

وتعرض لها مرارا بعد ذلك، فلم يرها، فعمد إلى غلام من الحى، فمناه الجزاء
إن هو أنفذ له ما يريد منه، وسأله الغلام ماذا تريد؟ فقال له: أريد منك أن
تخاذى دار صفوان وتنشد هذه الأبيات:

مريضٌ بأفناء البيوت مطرَح أبى ما به من لاعج الشوق يبرح
وليس دواء الداء إلا بخيلة أضرب بنا فيها غرام مبرح
إذا ما سألناها وصالا تُنيله فصم الصفا منها بذلك أسمح

وجعل يكررها عليه حتى حفظها. وحاذى دار صفوان، ورفع صوته بالأبيات،
فعرفت ظريفة قائلها، وأنشدت تجيبه:

رعى الله من هام القواد بحبه ومن كدت من شوق إليه أطير
لئن كثرت بالقلب أتراح لوعة فإن الوشاة الحاضرين كثير
وإن لم أزر بالجسم رهبة معشر فبالقلب آتى نحوكم فازور

ورجع الصبى إلى مالك فأنشده أبياتها، فسقط مغشيا عليه ساعة، ثم أفاق
وهو يردد إهمال عشيرته وأبناء عمومته له قائلا:

أظن هوى الخود الغريرة قاتلى فيا ليت شعري ما بنو العم صنُع
أراكم - وللرحمن درُ صيعةكم - تركتم دمي هذرا وخاب المضيع

زواج ظريفة

أضنى الحب مالكا وبرا، فتوسل إلى بعض أقاربه أن يخطبوا له ظريفة من
أبيها، وذهبوا إليه يخطبونها منه، فقال: إني لا أزوجها له بعد أن فضحها بشعره،

وردهم أقبح رد، ثم زوجها - على كره منها - لفتى من فتيان العشيرة تقدم إليها. ولما عرف مالك خبر زواجها أخذ يبكي بكاء مراً، فكان بنو عمه وأقرباؤه يواسونه ويعزونه، فكان يقول:

دعوني لما بى وانهضوا فى رعاية
واذ قد دنا موتى وحالت منيتى
وقد جلبت عيني إلى الدواهيا
أموت بشوق فى فؤاد مبرح
من الله قد أيقنت أن لست باقيا
فيا ويح نفسى من به مثل ما بيا

واشتدت به العلة، حتى غدا كالحبال، وفى يوم تتابع عليه الإغماء، وكان كلما أفاق من إغمائه ردد:

ليكنى اليوم أهل الود والشفق
اليوم آخر عهدي بالحياة فقد
لم يبق من مهجتي إلا شفا رَمَقِ
خلصت من رُبقة الأحزان والقلق

ولم يزل على ذلك حتى شهق شهقة فارق على إثرها الحياة. وعلمت ظرفه بموته فى جيبها، فخرجت حتى انتهت إلى قبره فألقت نفسها عليه، وهى تبكى وتنشد:

اليوم أبكى لصب شفا مهجته
أعطرك قبرك أسرى لى النسيم به
طول السقام وأضنى جسمه الكمذ
أم أنت حيث يناط السحر والكبد

ثم انشنت على صدرها وكبدها، فحركها من معها، فوجدوها مائت، فدفنوها بجواره.

ابن أبي عمّار الناسك وسلامه

سلامة

كانت سلامة مولدة من مولدات المدينة وبها نشأت، وكانت من أحسن النساء وجها وأتمهن عقلا وأعذبهن حديثا، قرأت القرآن وروت الأشعار، ثم تعلقت بالغناء، فتلمذت فيه على معبد مغنى المدينة المشهور، فمهرت، وجلست للغناء مع أختها ريا في مجلس لهما بالمدينة، فكان الشعراء والناس يقصدون دارهما للسماع، ولم يبق بالمدينة شاعر إلا وشغفت قلبه حبا، وكان ممن أسرت لبّه الأحوص، وفيها يقول في بعض أشعاره:

إذا أنت لم تعشق ولم تلدّر ما الهوى فكُن حجراً من يابس الصخر جَلَمَدا
وإني لأهواها وأهوى لقاءها كما يشتهي الصادي الشَّرابَ المِرْدَا

وكانت تصفى الود كل من يتعلق بها، كما كانت تكثر من الرحيل إلى مكة، موقدة في نفوس الناس هنا وهناك جلوة الإعجاب.

الناسك المكي

وكان بمكة ناسك مشهور بالتقوى والعبادة والزهد في حطام الحياة، وكان من قراء الذكر الحكيم ورواة الحديث النبوي، ليس له شغل سوى النسيك حتى لقبه أهل بلده بالقس، وهو عبد الرحمن بن أبي عمار الجشمي. وتصادف أن سمع غناء سلامة ذات يوم، فأظهر استحسانه وافتتانه به، ورآه مولاهما أمام داره، وهو يهدف سمعه، فدعاه أن يدخله إليها فيسمع منها، غير أنه أبى عليه مظهرا تحرجه، فقال له: فإني أقعدك في مكان تسمع منها ولا تراها ولا تراك،

فقال : أما هذا فنعم ، فأدخله داره وأجلسه حيث يسمع غناءها . فلما طال سماعه لها قال له : هل لك فى أن أخرجها إليك ؟ فأبى . فلم يزل به حتى أخرجها ، وأقعدا أمامه ، وهى تضرب على العود وتغنى ، وسرعان ما فتن بها وفنت به ، وشاع ذلك فى الناس حتى غلب عليها لقبه ، إذ سموها سلامة القس.

غرام متصل

احتلّ حب سلامة قلب القس، وأخذ يستأثر بكل مشاعره وعواطفه، حتى لقد حوله إلى شاعر غزل، ينظم الشعر، ويلقى به صاحبه ضارعا متوسلا، بل لقد تحول به إلى ما يشبه شبكا يحوكها من حولها، وكلما تخلصت من خيوط تعثرت فى أخرى، فإذا هى تقع فى حبه كما وقع فى حبها، وإذا هى تردد عليه كل ما ينظمه فيها، بل إنها لتغنى به غناء عذبا ساحرا، فتضفى على جمال شعره جمال صوتها، وكأنما يتعانق العاشقان فى الألفاظ والكلمات حين يشد القس وتتغنى سلامة بمثل قوله:

سَلَامُ هَل لى مِنْكُمْ ناصِرُ أم هل لقلبي عنكم زاجرُ
قد سمع الناسُ بوجدى بكم فمنهمُ اللائمُ والعاذرُ

وقوله:

أهالكِ أن أقول بذلتُ نفسى ولو أنى أطيع القلبَ قالَا
حياءُ منكِ حتى سُلَّ جسمى وشقَّ علىَّ كتمانى وطالا

وطبيعى أن يدوى القس ويأخذه النحول والضمور، لأنه لا يحب حبا عاديا، فيه متاع وفرح وابتهاج، وإنما يحب حبا طاهرا نقيّا كله حرمان، وكله ألم وضنى وشقاء، وكله وجد ليس بعده وجد، وكله غناء لا يشبهه غناء.

بين النسك والهيام

أخذت سلامة تمنع في حب القس، وكلما ظنت أنها أصبحت قاب قوسين أو أدنى منه، تراءى لها في الخيال، وكأنه يحاول أن يعدها عنه، ولكن ترى متى يتحول حب القس من هذه النار العاصفة بنفسه إلى شراب مصفى؟ وكانت تلقاه دائما ويتجاذبان أطراف الحديث، ومن حين إلى حين يقدم لها أشعاره من مثل قوله:

سَلَامٌ ويحك هل تُخبِّئ من ماتا أو ترَجِّعين على الحزون ما فاتا

وقوله:

ألا قُلْ لهذا القلب هل أنت مُبْصِرٌ وهل أنت عن سَلَامَةِ اليوم مُقْصِرٌ

ولا يعدو ما بينهما من كلام النقاء العذرى البرىء، وإنه لينصرف دائما عن هذا الجمال المغرى والحسن الفاتن إلى النسك والعبادة، متخلصا من كل علاقة حسية وكل شائبة مادية.

وداع إلى الأبد

ملك حب القس على سلامة قلبها ومشاعرها، وكثيرا ما كانت تحدث نفسها أن تنعم بحبها وأن يضمها القس إلى صدره، ولكنها كانت كلما لقيته أكبرته وأجلته، وشعرت كأن حجابا صفيقة تقوم بينه وبينها، وإنها هائمة به وهيام لا يعرف اليأس، وتخلو به ذات مساء، فتبادره بقولها: أنا والله أحبك، ويحببها: وأنا والله أحبك، وتقول: وأنا أشتى أن أعانقك وأقبلك، ويحببها: وأنا أشتى مثل ذلك، وتقول: فما يمنعك وإن الموضع لخال، ويحببها: يمنعني أن أنعم بحبك في الدنيا وأشقى به في الآخرة فنعُدو يوم القيامة من الأخلاء الأعداء

الذين ذكرهم الله عز وجل في قوله: ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾. ويودعها وداع الأبد منشدا:

بَآتَتْ تُلَعِّلُنَا وَتَحْسِبُ أَنَّنَا فِي ذَاكَ أَيْقَاطٌ وَنَحْنُ نِيَامُ
حَتَّى إِذَا سَطَعَ الصَّبَاحُ لَنَاظِرٍ فَإِذَا بِذَلِكَ بَيْنَنَا أَحْلَامُ

ويعود القس من أحلامه الكبيرة إلى ما كان عليه من الزهد والتتقشف والعبادة والانصراف عن كل متاع في الحياة. وتشد سلامة رحلها إلى المدينة حاملة لعاشقها العابد بين الأسى والندم مودة صافية وإخلاصا لا حد له.

ذو الرُّمَّة وميَّة

أول الهوى

كان ذو الرمة من بنى عدى بن عبد مناة شاعرا من أطرف الناس حلو المنطق حسن الحديث، إذا كلمك لم تسأم كلامه. وكانت مية بنت سيد شريف من تميم يسمى طلحة بن قيس بن عاصم، وكانت حميرة اللون أقرب إلى القصر بدينة، إلا أن في كلامها عذوبة.

وسبب تعلق ذى الرمة بها وأول ما كان من عشقه لها أن حيَّه كان يقيم بالقرب من عشيرتها في بعض لُجعاته بشرقى الجزيرة العربية، وضلت لهم إبل فخرج هو وأخوه وابن عمه في ابتغائها وطلبها، وبينما هم يسرون رأوا خيمة كبيرة قد علا عمودها وأطناها ومدت أوتادها وأسبابها، وكان قد أجهدهم العطش، فقال له أخوه وابن عمه: انت الخيمة فاستسق لنا، فأخذ معه قربة صغيرة، وأتى الخيمة، فإذا عجوز جالسة فاستسقاها، فالتفت وراءها وقالت: يا مى، فجاءتها فتاة تتمشط حاسرة الرأس قد أسبلت شعرها كأنه عناقيد النخل ووجهها يشف من خلاله، فقالت لها: اسق الغلام، فجاءت بماء خلط بلبن فسقته، ثم أخذت تملأ له قريته، وتقول له عابثة: لقد كلفك أهلك السفر على ما أرى من صغرك وحدائلك سنك. ولها ذو الرمة بالنظر إليها، وأقبلت تصب الماء في قريته والماء يذهب يمينا وشمالا، فأقبلت عليه العجوز وقالت له: يا غلام أهلك مى عما بعثك أهلك له، أما ترى الماء يذهب يمينا وشمالا؟ فخجل ومضى لصاحبيه وقد علق بقلبه من حباها لآعج عجز عن إطفائه، وغرام كل عن إخفائه. وأتى أخاه وابن عمه، فحدثهما بها، وكيف تحرك لها قلبه، وهما يضحكان منه ويعجبان من أمره.

معاودة الزيارة

هام ذو الرمة بمية، وأصبح مستهام القلب بها يذكرها في غدوه ورواحه، ولما طال به هيامه عاد إلى زيارتها فكانت تلقاه وترحب به، ويتحدثان أحاديث طويلة. وكانت دياره بعيدة عن ديارها، فكان يلومه بعض رفاقه على ما توجب له زيارتها من نصب ومشقة، فكان يقول:

وكنت إذا ما جئت مَيَّا أزورها أرى الأرضَ تُطَوِّى لي ويدنو بعيدُها
من الحَفَرَات البيض وُدَّ جليْسُها إذا ما انقضت أحدوثُ لو تعيدُها

وظل يعاود زيارتها، وهي تستقبله، وتكرمه، وتحدثه، وقد عرفت أنها أسرت لُبَّهُ، ولم تكن تنتبه به مكانا قصيا، بل كانت تجلس إليه ومعها صواحبها يستمعن إلى حديثه وأشعاره.

يزورها مع صديق

وكان لدى الرمة صديق يسمى عقبة بن مالك، فجاءه يوما وقال له: لقد عرفت أن الرجال في عشيرة مية قد اتجمعوا فهل تسعدني في زيارة إليها، ترافقني فيها، فأجابه إلى بغيته. وركبا حتى أتيا حيها، وإذا بيتها خال قد خرج عنه أبوها وأهلها، فمالا إليها، ورآهما النساء، فتجمعن لُحوهما ونحو بيت مية، وخرجت إليهما كأنها البدر السافر، وهتف النسوة: أنشدنا يا ذا الرمة من شعرك وغزلك، فقال: أنشدهنَّ يا عقبة، فنظر إليهن وأنشدن من شعر ذي الرمة:

وقفتُ على ربيعٍ لَمِيَّةٍ ناقتي فما زلت أبكى عنده وأخاطبُها
وأسقيه حتى كاد مما أبثُّه تكلمني أحجارُه وملاعبُه

فلما بلغ قوله:

فأسبلت العينان والقلبُ كاتمٌ بمغروقٍ نمتُ عليه سواكبةً
هو الإلفُ قد حانَ الفراقُ ولم تجلُ مجاولها أسرارهُ ومعاتبه
قالت ظريفة من النساء: لكن اليوم فلتسجل. ومضى رفيقه، فلما انتهى إلى قوله:
وقد حلفتُ بالله مئةً ما الذى أحدثتها إلا الذى أنا كاذبه
إذن فرماني الله من حيث لا أرى ولا زال فى دارى عدوُّ أحاربه
فقالت الظريفة لى: قتلته، قتلك الله، فقالت مى: خف عواقب الله يا ذا الرمة.
واسترسل الرفيق فى القصيدة إلى قول ذى الرمة:

إذا سرحتُ من حبِّ مى سوارحٌ على القلب أمته جميعا عواذبه
فأعادت الظريفة على مى قولها: قتلته، قتلته. فقالت مى: ما أصحه وهيتا له،
فتفس ذو الرمة نفسا حاراً. ومضى رفيقه فى القصيدة إلى قوله:

إذا نازعتك القول مئةً أو بدا لك الوجه منها أو نصّاً الدرغ سائلةً
فيا لك من خدّ أسيلٍ ومنطقٍ رخيمٍ ومزوّجٍ تعلّل شاربه
فقالت الظريفة ضاحكة: هذا القول قد تنازعه الشعراء والوجه قد بدا وقد
واجهتها، فالتفتت إليها مية وقالت لها: ماذا تريدین؟ قاتلك الله. فقالت الظريفة
ضاحكة: إن لكما لشأنا، وغمرت صواحبها قائلة: قمن بنا، فقمين وقام معهن
رفيقه. ووقف بحيث يراهما، فجعل ذو الرمة يشكو لها وجده، وهى تقول له:
كذبت، لست صادقاً فيما تقول، وذرفت عيناه بالدموع، وأنشد:

ولما شكوت الحب كيما تُشيني بوجدى قالت إنما أنت تمزحُ
بعاداً وإذلاً على وقد رأيت ضمير الهوى قد كاد بالجسم يبرحُ
لئن كانت الدنيا على كما أرى تباريح من ذكراك فالوت أروحُ

ذو الرمة ومية

١٢٩

ثم انفجر في البكاء، فتساقطت قطراته على خديه كأنها حبال توشك أن تنخفه واستمر في نشيده:

إذا خطرتُ من ذكر مئة خطرةً على القلب كادت في فؤادى تجرُ
هى البرء والأسقام والهمُّ والمنى وموت الهوى فى القلب منى المبرح
تصرّف أهواء القلوب ولا أرى نصيبك من قلبى لغيرك يمنح
وبعض الهوى بالهجر يحى فينمحي وحبك عندى يستجدُّ ويربح

فقال: كفى كفى، ورقت له، ودخلت خباءها، وجاءته بقارورة طيب وقلادة، فأهدتهما إليه ذكرى زيارته وشعره. وودعها ومضى إلى رفيقه، فركبا بعيرهما، وعادا إلى حيهما وهو ينشد:

لعمرك إلى يوم جرعاء مالك لدو عبرةٍ كلا تفيض وتحنُّ
وإنسانٌ عيني يحسر الماء تارةً فيبدو وتاراتٍ يجمّ فيغرق

زواج مية

كان أبو مئة من أشرف العرب، فكان ذو الرمة يأسا من خطبتها، وتقدم إليها فتى موسر من عشيرتها فزفت إليه، ونقلت إلى حيه. ومر ذو الرمة مع صاحبين له بمنازلها التى كان يلقاها فيها وقد خرجت عنها، فقال يودع الآثار:

ألا فاسلمى يا دار مئى على البلى ولا زال منهالاً بجرعائك القطرُ

ثم نزل عن ناقته وأقبل على بعض المواضع يبكى فيها ويقلبها وقد وجد وجدا شديدا، فنزل إليه صاحباه يواسيانه ويقولان له: لقد تزوجت وأحرى بك أن تنساها، وكيف تفكر فيها ودونها من يحرسها ولن تستطيع الوصول إليها، فأنشد يحكى قولهما:

أَمَا أَنْتِ عَنْ ذِكْرِكَ مَيَّةً مُقْصِرُ
وَلَا أَنْتِ نَاسِيَ الْعَهْدِ مِنْهَا فَتَذَكُرُ
تَهَيِّمُ بِهَا مَا تَسْتَفِيقُ وَدُونَهَا
حِجَابٌ وَأَبْوَابٌ وَسِرٌّ مُسْتَرٌّ

وبكى بكاء شديداً، فأخذوا يعزيانه ويقولان له: أمسك نفسك، فقال: إننى جلد
وإن كان منى ما تريان، وانصرفوا.

الإلام بدار مية

وَأَلَمَ ذُو الرِّمَةِ بَدَارَ مَيَّةٍ فِي لَيْلَةِ ظُلُمَاءٍ، فَأَضَافَهُ زَوْجَهَا، وَطَمَعَ ذُو الرِّمَةِ فِي
أَنْ لَا يَعْرِفَهُ، فَيَدْخُلُهُ بَيْتَهُ، فَيَرَاهَا وَيَكَلِّمَهَا. وَلَكِنْ الزَّوْجُ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ عَرَفَهُ، فَلَمْ
يَدْخُلْهُ الْبَيْتَ وَأَخْرَجَ إِلَيْهِ طَعَامَهُ وَتَرَكَهُ بِالْعَرَاءِ، فَلَمَّا كَانَ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ تَغْنَى:

خَلِيلِي عُدًّا حَاجَتِي مِنْ هَوَاكِمَا وَمَنْ ذَا يُوَاسِي النَفْسَ إِلَّا خَلِيلُهَا
أَلَمَّا بَيَّ قَبْلَ أَنْ تَطْرَحَ النُّوَى بِنَا مَطْرَحًا أَوْ قَبْلَ بَيِّنٍ يَزِيلُهَا
وَأِنْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا تَعْلَلُ سَاعَةٍ قَلِيلًا فَإِنِّي نَافِعٌ لِي قَلِيلُهَا

فقطنت إليه مية، وأرسلت إليه جارية لها تسأله أن لا يتغنى حتى لا يتعرض له
زوجها بسوء، ولكنه لم يستمع إلى قول الجارية، وتغنى بصوت عال:

أَرَا جَعَةً يَا مَيُّ أَيْأَمْنَا الْأَلَى بَلَى الْأَثْلُ أَمْ لَا مَا لَهْنُ رَجُوعِ

فغضب زوجها، وقال لها: قومي فصيحى بهذا الرجل وسبيته، وقولي له: أى الأيام
كانت لى معك بلدى الأثل، فقالت له: سبحان الله إنه ضيف، وما كل ما يقوله
الشعراء صحيح، فانتضى زوجها السيف وقال: والله لأضربك به حتى آتى
عليك أو تقولى له ما قلت لك، فصاحت به كما أمرها زوجها، فنهض على
راحلته، فركبها وانصرف عنها مغضبا، وهو يقول:

أَيَا مَيُّ قَدْ أَثْمَتُ بِي وَيَحْكُ الْعِدَا وَقَطَّعْتَ حَبْلًا كَانَ يَا مَيُّ بَاقِيَا

موت ذى الرمة

وظل ذو الرمة وفيألمية يتغنى باسمها وبالمنازل التى كان يراها فيها، ويبكى
بكاء حاراً يلدف فيه الدمع مدراراً. ومرض حتى أسقمه المرض وأضناه،
وسرعان ما حضرته الوفاة، فقال لأهله: لا تدفونى فى الوهاد ولكن ادفنونى فى
كتبان مرتفعة واغرسوا حول قبرى بعض الأشجار. فلما مات حملوا عليه، ثم
حملوه وحملوا معه بعض الأشجار، وحفروا له قبراً فى كتيب عال دفنوه فيه،
ودثروه بذلك الشجر. وبكاه الحى وندبته النساء طويلاً.

العبّاس بن الأحنف وفوز

أول الهوى

كان العباس بن الأحنف شاعرا بغداديا غزلا حلوا مقبولا غزير الفكر عذب الحديث، محبوبا من هرون الرشيد ووزرائه وقواده، وكان محمد بن المنصور بن زياد الملقب بفتى العسكر يألّفه ويعجب به، فكان يدعوّه إلى منزله، وكان جوادا يختلف إلى مجلسه الأدباء والشعراء، وكان له جوار كثيرون، وكانت من بينهم جارية ظريفة تسمى فوزا تروى الشعر وأخبار العرب، فكان محمد يحضرها مجالسه؛ فوقعت في قلب العباس بن الأحنف، وعرفت موضعها من قلبه، إذ كان يطيل النظر إليها، وكان إذا سأله محمد بن المنصور عما أحدث من الغزل ينشد أشعاره وهو ناظر إليها، وكان يَكْنِيها باسم ظلوم، لما كانت تصد عنه وتنفّر منه وسأله يوما محمد ماذا أحدثت؟ فقال:

قالت ظلومُ سَمِيّةُ الظلم ما لي رأيتك ناحل الجسم
يا مَنْ رمى قلبي فأقصده أنت العليم بموضع السهم

فأطراه محمد، وأظهر إعجابه واستحسانه، وقال له: زدنا يا عباس من غزلك الرقيق، ونظر إلى فوز فرآها تتكلف الإعراض والازورار عنه، فأنشد:

ألا تعجبون كما أعجبُ حبيبٌ يُسيئُ ولا أعتبُ
وأبغى رضاه على سخطه فيأبى علىّ ويستصعب
فيأليت حظي إذا ما أسأ ت أنك ترضى ولا تغضب

فقال محمد بن المنصور: والله إن معشوقتك لمقصرة، ولو كنت في موضعك لقابلت إعراضها بإعراض، فقال على البديهة:

تَحْمَلُ عَظِيمَ اللَّذْبِ مِنْ تَحِبُّهِ وَإِنْ كُنْتَ مَظْلُومًا فَقُلْ أَنَا ظَالِمٌ
فَإِنَّكَ إِلَّا تَغْفِرَ اللَّذْبَ فِي الْهَوَى يَفَارُقُكَ مِنْ تَهْوَى وَأَنْفَكَ رَاغِمٌ
فَطَرِبَ مُحَمَّدٌ وَقَالَ لِلْعَبَّاسِ: صَدَقْتَ، وَانْتَهَى الْمَجْلِسُ، فَقَامَ، وَانْصَرَفَ.

متابعة الشكوى

وفى مجلس ثانٍ لمحمد بن المنصور أقبل العباس فسلم، وبدت فوز، فخفق قلبه، وجلست دون أن تحييه، وأخذ العباس فى الحديث، فسأله محمد، ما شأن صاحبك وهل وصلتك؟ فأجاب:

وَاللَّهِ لَوْ أَنَّ الْقُلُوبَ كَقُلُوبِهَا مَا رَقَّ لِلْوَلَدِ الضَّعِيفِ الْوَالِدُ
وقال محمد: ترى من هى التى فتتلك وما مقدار حسننها؟ صفها لنا وأوجز، فقال على الفور:

لَقَدْ مَلَأْتُ مَاءَ الشَّبَابِ كَأَنَّهَا قَضِيبٌ مِنَ الرِّيحَانِ رِيَّانٌ أَخْضَرُ
ونجست فوز، ولم يلتفت محمد ولا فطن. وقال: مسكين أنت يا عباس، ولو عرفت لكلمتها فى أمرك، ومن يعرف ربما كانت تصد عنك عتاباً لا مللاً ولا كرهاً، فأنشد:

لَوْ كُنْتُ عَاتِبَةً لَسَكَّنَ رَوْعَتِي أَمَلِي رِضَاكَ وَزَرْتُ غَيْرَ مَرَاقِبِ
لَكِنْ مَلَلْتُ فَلَمْ تَكُنْ لِي حِيلَةً صَدُّ الْمُلُولِ خِلَافُ صَدِّ الْعَاتِبِ
فَقَالَتْ فُوزُ: يَا عَبَّاسُ ظَنُّ خَيْرًا فَرَبَّمَا كَانَتْ لَا تَسْتَطِيعُ لِقَاءَكَ وَلَا أَنْ تَبَادَلَكَ حَبَابًا بِحَبِّ، فَقَالَ عَلَى الْفُورِ:

تَمَنَّى رِجَالٌ مَا أَحْبُّوا وَإِنَّمَا تَمَنَيْتُ أَنْ أَشْكُو إِلَيْهَا وَتَسْمَعَا
أَرَى كُلَّ مَعْشُوقِينَ غَيْرِي وَغَيْرَهَا قَدْ اسْتَعَذَبَا طَوْلَ الْهَوَى وَتَمَتَّعَا

فقلت: أبلغك الله أمنيته يا عباس. وكانت بعد ذلك تكاتبه وتراسله.

أرق على أرق

أصبح العباس كلنا بفوز لا يفارق مجلسها ومجلس سيدها، واشتد به كلفه فكان يبيت الليل مسهدا لا يغمض له جفن وطال عليه ذلك فأنشد:

قفنا خبراني أيها الرجلان عن النوم إن الهجر عنه نهاني
وكيف يكون النوم أو كيف طعمه صيفا النوم لي إن كتتما تصفان

وشكا إلى بعض أصحابه أنه لا ينام، فتغامزوا عليه، وقالوا: محب هائم، دع الحب يأتك النوم، وأمسي لا يلم به العباس، فأنشد:

لما رأيت الليل سداً طريقه عني وعذبني الظلام الراكد
والنجم في كبد السماء كأنه أغمي تخير ما لديه قائد
ناديت من طرد الرقاد بصدّه عما أعالج وهو خلو هاجد
ياذا الذي صدع الفؤاد بهجره أنت البلاء طريقه والتالد
ألقيت بين جفون عيني حرقه فإلى متى أنا ساهر يا راقد

وأرسل إليها هذه الأبيات في رقعة وذيلها بقوله

وسعى بها ناسٌ فقالوا إنها هي التي تشقى بها وتكابد
فجحدتهم ليكون غيرك ظنهم إني ليعجبني الحب الجاحد

ولما وقفت على الرقعة قالت للرسول: لقد بلغني عنه أشعاراً يتغزل فيها باسمي، كأنه يريد أن يفضحني عند سيدي، وإنني لا أستطيع أن ألقاه بعد تشهيره بي، ولما عرف جوابها أنشد:

لعمرك ما يستريح الخـبُّ حتى ييـوحَ بأسراره
وقد يكتـم المرءُ أسـراره فتظهر في بعض أشعاره

لقاء

ودخل العباس يوما على محمد بن المنصور وفوز بين يديه ومعه حضور
كثيرون، فقال له محمد: أنشد بعض ما قلت من غزلك يا عباس فإن غزلك رقيق
يأخذ بمجامع القلوب، فأنشد:

أتأذنون لصبٍّ في زيارتكم فعندكم شهواتُ السمع والبصرِ
لا يضر السوءَ إن طال الجلوسُ به عَفُ الضمير ولكن فاسقُ النظرِ

فلم يبق أحد في المجلس إلا طرب، وتعجب من حسن ما يأتي به من معان، وقال
له محمد: زدنا مما قلت، حيّاك الله، فقال:

راجعُ أحبَّتكَ الذين هجرتهم إن المُتِمِّمَ قَلَمًا يَتَجَنَّبُ
إن التجنب إن تطاول منكما دبُّ السلو له فعزُّ المطلب

فتبسمت له فوز، وقال السامعون: أحسنت والله درك، وماذا بعد، فأنشد:

الحب أولُّ ما يكون لجانحةً تأتي به وتسوقه الأقدارُ
حتى إذا سلك الفتى لججَ الهوى جاءتْ أمورٌ لا تُطاقُ كبار
نزف البكاء دموع عينك فاستعزَّ عينا لغيرك دمعها مدرار
من ذا يعيرك عينه تبكى بها أرايتَ عينا للبكاء تُعار

فلم يبق أحد من الحاضرين إلا قال له: أنا أعيرك عيني، حاطك الله وحفظك،
ونظر إلى فوز فغضت طرفها وخجلت، فأنشد:

قلبي إلى ما ضرّني داعي يُكثر أسقامي وأوجاعي
كيف احتزاسي من عدوّي إذا كان عدوى بين أضلاعي
أسلمني للحبِّ أشياعي لما سعى بي عندها الساعي
إن دام لي هجرتك يا مالكي أوشك أن ينعاني الناعي

زيارة

رقت فوز للعباس فواعدته في ليلة كان سيدها فيها غائبا، ولم يكد يصدق
عينيه حين رآها، فوثب إليها وسلم عليها، وجلست فقالت له:

لا بد للعاشق من وقفة	تكون بين الوصل والصبرم
يعتب أحيانا وفي عتبه	إظهار ما يخفى من السقم
إشفاقه داع إلى ظنه	وظنه داع إلى الظلم
حتى إذا ما مضه هجره	راجع من يهوى على رغم

ثم أردفت: إني إنما صددت عنك، لما كنت أرى من عبرات تترقق في عينك،
وأخشى أن يعرف أمرك محمد بن المنصور، فيمنعك من لقائي، فأشد:

لا جزى الله دمع عيني خيرا	وجزى الله كل خير لسانى
ثم دمعى فليس يكتم شيئا	ورأيت اللسان ذا كتمان
كنت مثل الكتاب أخفاه طي	فاستدلوا عليه بالعنوان

ومكثت قليلا، ثم استأذنت في الانصراف، فأذن لها على مضض وهو ينشد:

والى ليرضيني قليل نوالكم	وإن كنت لا أرضى لكم بقليل
بحرمة ما قد كان بينى وبينكم	من الوصل إلا غدثكم بجميل

مكاتبة

وغابت عنه مدة لم يرها فيها، فهاج بلبائه، وزادت به أشجانه، فكتب إليها
رقعة، يقول فيها:

نام من أهدي لى الأرقا	مستريحا زادنى قلقا
لو يبيت الناس كلهم	بسهادى ييضى الحقا

كان لي قلبٌ أعيش به فاصطلي باحِبِّ فاحترقا
أنا لم أرزق مودتكم إنما للعبد ما رزقا

فلما قرأت الرسالة قالت للرسول: لقد ظلمنا العباس، وإنني لزائرته، وضربت موعدا للقاءه.

موعد

ظل العباس ينتظر فوزا، وكانت قد تأخرت بعض الوقت، فداخلته الوسواس وهجمت عليه الهواجس وظن أنها لن توافيه، فبكى وأنشد:

أُحْرِمُ منكم بما أقول وقد نال به العاشقون من عشقوا
صرتُ كأنى ذُبالة نُصِبت تضبيُّ للناس وهى تحترقُ

ولم تمض إلا برهة يسيرة حتى أقبلت، فقالت له: معذرة إنى تأخرت لشغل عرض، ولم يكن لي طاقة بتأخيرته، ثم أقبلت عليه، وقالت له: أنشدني بريك آخر ما نظمته فى، فأنشد:

إن قال لم يفعل وإن سبيل لم يبذل وإن عوتب لم يُعتبِ
صبُّ بعصيانى ولو قال لى لا تشرب البارد لم أشرب
إليك أشكور رب ما حلَّ بى من صدِّ هذا المذنب المُغضِبِ

فقالت لا عليك، والله ما أتأخر عنك من صد ولا هجر، إنما هو الشغل يحول بينى وبين لقاءك وكلامك الحبيب إلى نفسى، فقال:

تعلُّ بالشغل عنا ما تكلمنا الشغل للقلب ليس الشغل للبدنِ

فقالت: أتظننى أملك أمرى، إذن ما فارقتك، ولا وجدت فى نفسى هذا النقص لعدم لقياك، وتشاكيا لهوى ثم قامت، فمضت.

مرض فوز

وجّه العباس رسولا إلى فوز، فعاد فأخبره أنها تجد صداعا وأنه رآها معصوبة الرأس، فأخذها الوجد بها ، وتمنى لو نقل الداء إلى رأسه فداء لها وأنشد:

عصبتُ رأسها فليت صداعا قد شكته إلىّ كان يرأسى
ثم لا تشتكى وكان لها الأجرُ وكنتُ السقامَ عنها أقاسى
ذاك حتى يقول لى من رآنى هكذا يفعل المحبُّ المواسى

وبرئت مما ألم بها من مرض، ثم نكست وبلغه ما صارت إليه من النكس فقال:

إن التى هامت بها النفسُ عاودها من عارض نكسُ
كانت إذا ما جاءها المُبتلى أبراه من كفها أللمسُ
وإلى بآبى الوجه المليح الذى قد عشقته الجن والإنسُ
إن تكن الحمى أضرت به فربما تنكسفُ الشمسُ

شفاعة

وكان فى خلق العباس شدة فضرب غلاما له وحلف لبيعه، فمضى الغلام إلى فوز، فاستشفع بها إليه، فكتبت إليه فيه، فقال:

يا من أتنا بالشفاعاتِ من عند مَنْ فيه لجاجاتى
إن كنت مولاك فإن التى قد شفعت فيك لمولاتى
إرسالها فيك إلينا لنا كرامة فوق الكرامات

ورضى عنه ووصله وأعتقه.

لقاء ووداع

مضت مدة طويلة لا تلتقى فيها فوز بعباس، ففلق وجزع وطن أنها قد

هجرته، فكتب إليها رسالة يقول فيها:

يا فوز يا منية عباسٍ واحربا من قلبك القاسي
أسأت أن أحسنتُ ظنِّي بكم والحزم سوء الظن بالناس
يقلقني الشوق فأتاكم والقلب مملوء من الياس

فقالت للرسول: إن الفرصة لا تواتيني، فعاد إليه وأخبره بما قالت، فكتب رسالة أخرى، يتفجع فيها على وصلها ويقول:

سلبتني من السرور ثيابا وكستني من الهموم ثيابا
كلما أغلقت من الوصل بابا فتحت لي إلى المنية بابا
عديني بكل شيء سوى الصلِّ فما ذقت كالصدود عذابا

ولما قرأت الأبيات رقت له وقالت للرسول: إنني زائرة له في يوم كذا.
وجاءت، فوثب إليها وجثا عند قدميها، يشكو تباريح حبه، فأمسكت برأسه
ووضعت يدها على صدره، وقالت: ليتني كنت لك، وبكت وبكى معها
وأنشد:

ما أنس لا أنس يمانها معطفةً على فرادي ويسراها على راسي
وقولها: ليته ثوبٌ على جسدي أو ليتني كنت سربالا لعباس
أو ليته كان لي خيرا وكنت له من ماء مُزِنٍ فكنا الدهر في كاس

وأقبلت عليه، فقالت له إن سيدي قد عزم على الحج، وسيأخذني معه،
فأستودعك الله، وقامت، فمضت لوجهها.

فوز تحج

أخذ العباس يرقب خروج فوز لعله يراها وهي راحلة إلى حج بيت الله
الحرام، ورأى راحلتها تعدو، وهي خارجة إليها فبكى وأنشد:

يا ربُّ رُدُّ علينا من كان أنساً وزينا
من لا نُسرُّ بعيشٍ حتى يكون لدينا

وغابت فوز عن عينيه، فجزع جزعا شديدا ومضى يسأل عن حجاج آخرين يحملهم إليها رسالة له، ووجد بعض من يعرفه معتما على أداء الفريضة، فكتب إليها:

أزَّينَ نساءَ العالمين أجيبني	دعاءً مشوق بالعراق غريب
كُتِبَ كتابي ما أقيم حروفه	لشدة إعوالي وطول نحبي
أخطُّ وأعو ما أخطُّ بعبرة	تسحُّ على القرطاس سحَّ ذلوبي
أيا فوز لو أبصرتني ما عرفتنني	لطول نحولي بعدكم وشحوبي
وأنتِ من الدنيا نصيبي فإن أمت	فليتك من حور الجنان نصيبي
واني لأستهدي الرياح سلامكم	إذا أقبلتُ من نحوكم بهبوب
وأسألفا حملَ السلام إليكم	فإن هي يوما بلغتْ فأجيبني
أرى البينَ يشكوه الغبون كلهم	فيا ربُّ قُربُ دارٍ كل حبيب

وقدمت فوز من الحج وعلم عباس فأخذ ينشد فرحا مسرورا:

ألا قد قدمت فوز فقرتْ عينُ عباس
لن بشرني البشري على العينين والراس

مغاضبة

ظل عباس ينتظر من فوز موعدا تضربه له بعد عودتها من الحج، ولكنها كانت انصرفت عنه إلى بعض شباب الجند، فكتب إليها:

أبكي الذين أذاقوني مودتهم حتى إذا أيقظوني للهوى رقدوا

فلم ترد عليه ولا منته وعدا. وطال جفاؤها له، وعرف أنها أحبت سواه، فعزم على تركها، ثم راجعته نفسه، فكتب إليها يتوسل ويقول: الإدلال يدعو إلى الإملال، ورب حب انقلب إلى كره وهجر، وقال:

ما أراني إلا ساهجر من ليس يراني أقوى على الهجران
قد حدا بي إلى الجفاء وفائي ما أضرب الوفاء بالإنسان

فقال للرسول: إنه تغير لما يسمع من قول الوشاة، وإنه يذكرني بالسوء وأنى أحببت فني من فتیان الجند، وهذا شأنى وحدى، فإن أحب أن يختلف إلى مجلس سيدى فليفعل، فلما سمع ذلك بكى وكتب إليها:

كتبْتُ تلوم وتسرُّدُ مودتي وتقول لستَ لنا كعهده العاهد
فأجبتها ودموع عيني جَمَّةٌ تجرى على الخدين غير جوامد
يا فوز لم أهجركمُ لماللةً منى ولا لمقال واش حاسد
لكننى جرَّيتُكم فوجدتُكم لا تصبرون على طعام واحد

وتمادى بينهما الهجر.

موت العباس

وظل العباس يندب حبه حتى أضناه، فخرج مع غلام له إلى بعض الرياض، فاستلقى تحت شجرة ورفع طرفه وهو متهالك ضعفاً، وأنشأ يقول:

يا سقيم الجسم من محنة مفردا يبكى على شجنة
كلما جدَّ البكاء به دبَّت الأسقامُ فى بدنه

ثم أغمى عليه، فأقبل طائر فوقع على شجرة، وجعل يغرد ففتح عينيه، ثم أنشأ يقول:

ولقد زاد الفؤاد شجاً طائرٌ يبكي على فَنِّه
شفّه ما شقني فبكي كلُّنا يبكي على سَكْنِه

ثم تنفس تنفساً مديداً فاضت فيه نفسه، فحمله غلامه إلى منزله، وخرج
الجواري يبكين عليه ويندبونه وبكاه أصدقاءه ورفاقه أحراراً بكاءً.



Given:

Location of the object: "R" ... (GOAL)
Dist. 100. v. S. 100. 100. 100.



المؤلف الدكتور شوقي ضيف

رئيس مجمع اللغة العربية وأستاذ الأدب العربي
المعروف بكتساباته القيمة في كافة فنون الأدب
واللغة والنقد والبلاغة.

هذا الكتاب

الكتاب يؤرخ لموضوع الحب العذري عند العرب
مع مختارات من قصصه الذائعة الصيت
من أمثال قيس وليلى وجميل وبثينة
ويعرض محتويات الكتاب ما يلي :

الحب - الحب العذري - مجنون ليلى - جميل وبثينة
قيس بن ذريح والبنى - عروة بن حزام وعفراء
كثير وعزة - توبة وليلى الأخيلية - الصمة وربا
مالك وظريفنة - ابن أبي عمير الناسك وسلامة
ذو الرمة وميعة - العباس بن الأحنف وفوز